

# صعود الغرب : عرض وتلخيص\*

## (وليام ماكنايل)

الفضل شلق

### أولاً: إنبعاث الشرق الأوسط (أ) مقدمة

كانت الصحراء العربية وحوض الفرات الأعلى حدّاً فاصلاً بين امبراطوريتي الفرس والروم لمدة سبعة قرون امتدت من عام 64 ق.م.، عندما احتل بومبي سوريا وفلسطين والأناضول ووضعها تحت سيطرة الرومان، إلى عام 636 عندما انهزم البيزنطيون أمام جيش خالد بن الوليد في اليرموك. في هذه الفترة، لم يتغير الكثير في المنطقة رغم الأحداث التي انتابتها. في عام 641 احتل العرب بلاد الرافدين، وفي عام 651 قصوا على امبراطورية الساسانيين.

كانت هذه المنطقة، التي نضجت فيها أولى الحضارات البشرية، قد صارت مجال نفوذ للحضارة الهيلينية لكنها انقسمت سياسياً، في ذلك الوقت، بين نفوذ الفرس ونفوذ الرومان. في ظل الإسلام عاد الشرق الأوسط ليتوحد من جديد في إطار سياسي وحضاري مميز. وقد جمعت حضارته عناصر الثقافات التي كانت على تماس بها والتي كانت تختلط وتشابك في تقاطع طرق الآيكمون على مدى الألف سنة السابقة (ص 417).

كان للحضارة الإسلامية لغة مشتركة ودين مشترك. وكانت حضارة مركبة؛ سميت إسلامية لأن للدين فيها مكاناً مميزاً ومركزاً. وقد قبلت جماعات وأفراد

الإسلام أو رفضه كاملاً لأن العقيدة تتطلب أرثوذكسيّة ترفض ما هو خارج عنها. وقد شكلت أوروبا والهند مع الشرق الأوسط وحدات حضارية ثلاثة للدين مكان مركزي في كل منها. وكانت وحدات منفصلة رغم العلاقات التجارية والاحتلال العسكري فيما بينها. وكانت الصين وحدة حضارية رابعة، لكنها كانت أكثر حيوية وأقل درغمائية. ففي عصر سلالة ثانج (618 - 908) حققت الصين أذهى مراحل حضارتها؛ ومنها هرب البيزنطيون معرفة إنتاج الحرير عام 552. كما أن صناعة الورق قد نقلها العرب منها بواسطة الأسرى عام 751 م (ص 418).

لقد أعاد الإسلام بعث منطقة الشرق الأوسط على المسرح الدولي؛ وبذلك استعاد حقيقة تاريخية قديمة. ولم يلغ الإسلام الحدود بين الحضارات اليوراسية الأربع، بل جعلها أكثر فصلاً وتميزاً (ص 419). وأدى توسيع الإسلام إلى انتشار الحضارة في السهوب الآسيوية - الأوروبية، وتطور الأمر إلى انتقال محور القوة السياسية العسكرية شمالاً بحيث أنسى لمرحلة لعب فيها الترك والمغول دوراً أساسياً بعد عام 1000 م (ص 420).

#### (ب) العالم الإسلامي حتى عام 1000 م

لم يحقق رجل بعد محمد ولا قبله نجاحاً كالذي حققه؛ وبنى ذلك على تأسيس أسلوب حياة بسيطة تسوده أحكام بسيطة (ص 421). كان العرب الفاتحون مجهزين تجهيزاً خفيفاً لكن سرعة حركتهم جعلتهم يتغلبون على المسافات الطويلة ويحققون نجاحات كبيرة ضد فرسان أفضل تدريباً ومزودين بالسلاح الثقيل (ص 426). لقد استمر التوسيع الإسلامي حتى عام 715، وإن بخطى أكثر بطئاً بعد عمر.

لم يبذل الأمويون جهداً لفرض الإسلام بالقوة، لكن التحول إلى الإسلام ازداد تدريجياً بسبب السياسة الضريبية (الخارج). فتضاعف عدد الموالي ونشأت تناقضات بينهم وبين العرب (ص 428). وعندما استلم العباسيون زمام السلطة ساروا في سياسة إزالة الفروق بين العرب وغير العرب، وذلك في نفس الوقت الذي اتجهت الانتماءات القبلية نحو الزوال فيما عدا بين سكان الصحاري (ص 431). وتدرجياً قبض العلماء على زمام أمور المجتمع ولم تعد مسألة

من يتولى الحكم أمراً مهماً. وكان الاختلاط الحر لأناس من مختلف الأجناس والثقافات متزاماً مع نهوض اقتصادي في إطار ذي مستوى عالٍ من السلم والنظام. وصار العالم الإسلامي مركزاً لتجارة مزدهرة شملت جميع أنحاء المعمورة. ومع حلول القرن العاشر نشأ نظام مصرفي سمح بنقل الأموال لمسافات بعيدة بواسطة رسائل الاعتماد. وكانت احتياجات الخلفاء والحكام للمال تلبي بقروض من المصارف بضمادات من موارد الدولة المستقبلية (ص 434). إن السعي لجعل الحياة الإنسانية منسجمة مع إرادة الله ترك أثراً بعيد المدى على الحياة الدينية والثقافية. ففي الحالة القصوى، كان هناك شك بكل سعي لا يخدم أهدافاً دينية. وبما أن الحقيقة والجمال ينبعان من القرآن، فقد كان هناك رفض لكل إنجاز ثقافي سبق محمداً، بما في ذلك اليهودية والمسيحية (ص 434).

لقد تأثرت الفنون بالظروف التي أحاطت بنشأة الإسلام، ولم تؤد الفتوحات إلى ظهور شعر ملحمي، كما مُنِعَ الرسم والنحت. ومن الممكן القول إن النمط الثقافي الإسلامي قد اكتمل تشكيله حوالي العام 1000م (ص 437). وكانت هناك حركة ناشطة للترجمة، وكان أهم مراكزها بيت الحكم الذي أسسه المأمون في بغداد. وحدث تطور كبير على صعيد الاكتشافات العلمية والتكنولوجية بالإضافة إلى تطوير الموزعين الدقيقية والاسطرباب والأنبیق. نرى طب الرازی، ورياضيات الخوارزمي، وفلسفة الفارابي التأملية، وجغرافية المسعودي، وتاريخ الطبری. أما التجاذب بين فكر الأدباء ورجال البلاط العلماني من جهة وأرثوذکسية العلماء من جهة أخرى فقد كان مسألة لا حل لها. ومن العلامات المميزة لذلك المجتمع رفض النسك والرهبنة (ص 438). كذلك كان التجاذب بين الأرثوذکسية الإسلامية والصوفية الذي لم ينحل رغم تطور الشیلوجیا الإسلامية باتجاه استيعاب الصوفية. فقد تأثرت الصوفية بالتشیع بسبب نشأتها، كما أن الهرطقات الإسلامية الأخرى تأثرت بالتشیع (ص 439). وقد ساهمت الحركات المذهبية في إضعاف الخلافة، ولجأت الخلافة، منذ عهد المأمون إلى استخدام الجنود الأتراك الذين سيطروا تدريجياً على مقاليد السلطة. لكن التفكك السياسي لم يحدث انقطاعاً في النمو الثقافي، بل أدى تعدد البلاطات إلى ازدهار ثقافي بارز (ص 440).

### (ج) المسيحية

إنتشرت المسيحية في القرون الستة الأولى من تاريخها في موجات دائرة من مركزها الأول في فلسطين. لكنها تراجعت في مراكزها القديمة بسبب انتشار الإسلام لاحقاً. ولو سقطت القسطنطينية بيد العرب الذين حاصرواها مرتين لأصاب المسيحية الأوروبية المصير نفسه (ص 441). في أيام العباسيين أفلع المسلمين عن محاولة السيطرة على المتوسط رغم فتحهم لشمال إفريقيا وإسبانيا. وفي الوقت الذي كانت أوروبا المسيحية تواجه المسلمين بصعوبة، كانت موجات من الترك وشعوب أواسط آسيا تتدفق من الشمال في موجات الأفارقة واللومبارديين والسلافيين والبلغار والخزر (ص 442). ومنذ القرن السادس، كانت مملكة الفرنكين التي أسسها كلوفيس في بلاد الغال تتبنى المسيحية اللاتينية (ص 443). وكان الرهبان الإيرلنديون السليتيون ينشرون المسيحية في إنجلترا وويلز وسكتلندا. وفي النهاية تبنت الجزر البريطانية المسيحية اللاتينية (ص 444). وبعد عام 750 ارتأحت المسيحية الأوروبية من عباء الهجمات الخارجية، كما أن البيزنطيين صاروا باستطاعتهم استخدام قواتهم البحرية لمنع اتصال سوريا ومصر الإسلاميَّتين بغرب المتوسط (ص 444).

في أوروبا الغربية أدى توسيع المملكة الكارولينية على حساب الخصوم الداخليين إلى إعلان الإمبراطورية المقدسة وتتويج شارلمان إمبراطوراً على يد البابا في عام 800م. لقد تم إخضاع جميع الشعوب герمانية بالسيف والدعوة، ونشأ حلف بين الإمبراطورية والبابوية. وفي الشرق نشب نزاع الأيقونات في أراضي الدولة البيزنطية في القرن الثامن والنصف الأول من القرن التاسع؛ وكان ذلك ردّاً على نقد المسلمين واتهامهم للمسيحية بالشرك (ص 446). وبعد موت شارلمان اتسعت الهوة بين المسيحية الشرقية والمسيحية الغربية، وتکاثرت ضدهما هجمات المسلمين من الجنوب والفايكنغ من الشمال والشرق، إضافة إلى غزوات الخزر والماغيار والبلغار، وغيرهم؛ مما أدى إلى انهيار الدولة الكارولينية. لكن البيزنطيين استعادوا أنفاسهم وتغلغلت الأرثوذكسية في أوروبا الشرقية على يد القديس سيريل الذي تبني الأبجدية اليونانية للغات السلافية (ص 448). ومع نهاية القرن التاسع

هيمنت الازدواجية اليونانية - السلافية على المسيحية الشرقية والازدواجية اللاتينية - الجرمانية على المسيحية الغربية. ومع نهاية القرن العاشر صارت أوروبا كلها مسيحية. وفي هذه الفترة، بين عامي 800 و1000م، اتجهت المسيحية للتوسيع في الداخل الأوروبي وعزفت عن محاولات التوسيع حول المتوسط الذي صار منطقة لا تهيمن عليها جهة معينة (No man's Land) (ص 449). وفي عهد الأباطرة المقدونيين (867 - 1054) انصرفت الدولة البيزنطية إلى الداخل وتراجعت قوتها البحرية وتزايدت سلطة أسياد الأرض الذين شكلوا بنية شبهاً بالدولة الساسانية (ص 450). في هذه الفترة كانت أوروبا الغربية تشهد تحولات جذرية؛ إذ كان الساحل الشمالي (بحر الشمال والقناة الإنجليزي) يحل مكان المتوسط؛ وشهد بناء السفن تطورات تقنية هامة خاصة في وضع الدفة في عاصد المؤخرة؛ لكن الحياة في أوروبا الغربية بقيت بدائية (ص 451). وعلى الرغم من الركود الثقافي والتفكك السياسي والخلاف الاقتصادي في هذه المرحلة، إلا أنها شهدت بداية لبناء مؤسسات وتقنيات سوف يكون لها أثر كبير فيما بعد. أولاً، في القرن العاشر اتسع استخدام المحراث الثقيل (mold board plow) الذي جعل ممكناً احتراق الأرض بعمق، وسهل تصريف مياه الأمطار. قبله لم تكن الزراعة ممكناً في أوروبا الغربية الدائمة الرطوبة سوى في المنحدرات. لكن الصمد الثقيل يحتاج أربعة ثيران لجره، وهذه وحدة اقتصادية استدعت إعادة تنظيم ملكية من أجل إعادة تقسيم الأرض الزراعية في حقول كبيرة الحجم والطول بحيث تحل مكان الحقول الصغيرة. وقد سمح التمزق الاجتماعي بإعادة التنظيم هذا. وهكذا أمكن التوسع في سهول أوروبا الغربية بالإضافة إلى شواطئها، وازدادت إنتاجية الأرض بفضل المناخ الممطر طوال العام وإمكانية الفلاحة على مدار السنة. وساهم ذلك في حل مشكلة تموين المدن وأتاح إمكانية نموها (ص 452)؛ ثانياً، أدى التطور الزراعي وتغيير نظام ملكية الأرض في القرنين التاسع والعشر إلى تقدم عسكري بإتاحته إنتاج فوائض زراعية كبيرة دعمت وجود عدد كبير من الفرسان ذوي السلاح الثقيل. لقد سبق الساسانيون والبيزنطيون، في عهد الأباطرة المقدونيين، إلى هذا النظام الذي قدم لأوروبا خدمة إضافية

هي الحماية ضد الغزاة البدو والبرابرة والقرصنة. وبقيت الصراعات الداخلية، بين الفرسان أنفسهم، لكنها لم تكن مؤذية مثل الغزوات البريرية. واستفید من استخدام المهماز (Lance) والرمح (Stirrup) في وجه البرابرة الذين بقوا فرساناً يستخدمون القوس والنشاب؛ ثالثاً، أضاعت القرصنة جاذبيتها مع تنامي القدرات الدفاعية الأوروبية. قبل ذلك كان التراوح بين التجارة والقرصنة الذي حسم لصالح التجارة (ص 454).

إزداد نشوء المدن الأوروبية بعد عام 1000م في موقع مناسب (قرب المطرانيات أو القلاع الفيدالية). لكن العامل النفسي والمؤسي الأهم هو أنها تشكلت في عصر شابته فوضى الانتقال من القرصنة إلى التجارة. وهي تختلف بذلك عن المدن في بقية العالم (في الدولة البيزنطية والشرق الأوسط والهند والصين) التي تألفت من حرفيين وتجار يخدمون أذواق الحكام وأمراء الأرض ورسميين البيروقراطية ويخضعون لضرائبهم ورسومهم. أما المدن الأوروبية فهي تعتمد على نفسها ويتمتع أبناؤها بالجرأة وروح المغامرة وهذا اختلاف مهم جداً لأن المدن هي حاضنة الحضارة العليا لدى كل شعب. وفي عام 1000م، انتهت مرحلة كانت فيها أوروبا المسيحية على جهة الدفاع عن النفس ومحاولة الحفاظ على شدرات من الماضي المتكسر وغير قادرة على ولوج المغامرة في أي أمر جديد (ص 456).

#### (د) الهند

أدى الانفجار الإسلامي في القرن السابع إلى إحاطة الهند وعزلها رغم أنه اقتصر على احتلال حوض نهر السند فقط. وقادت معركة تالاس في عام 751 ضد الصينيين إلى احتلال المسلمين للواحات في أواسط آسيا في شمال جبال الهنديوكوش وإلى قطع الاتصال المباشر بين الهند والصين؛ لكن الطريق عبر جبال الهملايا بقيت مفتوحة (ص 456). وبعد مذبحة كانتون ضد التجار المسلمين، تراجع المسلمون في المحيطات الجنوبيية المؤدية إلى الصين والمحيطة بالهند، وانتعشت تجارة الهند. ولم تستطع الهند أن توحد وأن تخرج من حالة التفكك السياسي التي أصابتها بعد عهد ملوك الجوبتا. ونظمت

الهندوسية نفسها حول المعابد، وصار الدين والآلهة واجهة المجتمع. وتراجع علم الفلك والرياضيات بعد ازدهارهما في أيام الجوبتا (ص 457). لقد تمحورت الحياة الهندية حول المعابد والأبراج ذات الهندسة المزخرفة والمعقدة. وانتشرت الـ Tantrism وما خالطها من طقوس وشعوذات وتعاويذ؛ وكان ذلك التطور مواز لانتشار السحر في أوروبا. وصارت الطقوس في متناول العامة بسبب رخص كلفتها وتعطش الناس لها (ص 458). واضطربت البوذية التي تزعزع وجودها في الهند بسبب انتشار الـ Tantrism والفلسفة الهندية إلى الاندماج في التدين الهندوسي بعد أن كانت قد خرجت منه. لكنها بقيت حية خارج الهند (ص 460). وقد ساهم المسلمون في القضاء نهائياً على البوذية في الهند عندما نهبو معابدها ولم يهتم أحد ببنائها. أما الهندوسية فقد تصلبت مقاومتها للإسلام الذي لا يتسامح مع الشرك، وساد اعتبار كل ما هو أجنبي عدواً؛ لكن الطابع العام لموقف الهند في هذه المرحلة كان دفاعياً (ص 461)؛ فقد جعلها الضعف السياسي المزمن عرضة للغزوات الأجنبية المتتابعة والتحديات الخارجية التي واجهتها بروح سلبية متحورة حول ذاتها (ص 462).

#### (ه) الصين

في عام 589 م توحدت الصين تحت سلالة (سوى) ونظام بيروقراطي ذي نموذج كونفوشيوسي قديم لجمع الضرائب من أجل إعالة مؤسسة عسكرية مشبعة بالروح القتالية وتقنيات بدو السهوب مما منح الصين قدرة كبيرة على حماية نفسها. لكن ابن السماء سرعان ما اصطدم بقوى الإسلام في حوض نهر الأوكسوس (ص 462). لقد أكثرت سلالة سوي من المشاريع الكبرى المعتمدة على السخرة ومن الغزوات العسكرية مما أدى إلى عصيانات وانفصالات ضدها. فحلت سلالة ثانج مكانها وأحكمت قبضتها في النصف الثاني من القرن السابع على واحات أواسط آسيا، وذلك حتى معركة تالاس في عام 751 م حين أخرجهم المسلمين منها. وقد استطاعت سلالة ثانج الاستمرار بإرضاي قبائل الأويغور ودفع الخراج لها. لكن تصاعد قوة الأمراء المحليين في وجه الدولة المركزية في القرنين الثامن والتاسع أدى إلى تضعضع سلطة الدولة المركزية التي زالت نهائياً في عام 907 (ص 463).

وريما كانت التهديدات الخارجية هي السبب في إعادة توحيد الصين عام 960 تحت سلالة سونغ، لكنها لم تستطع استرداد جميع المقاطعات الشمالية قبل مجيء سلالة مينج (1368 - 1644). وكان جنوب الصين قد بقي غير مستغل رغم انضمامه للامبراطورية منذ أيام الهان. وفي العهود المضطربة بين عامي 200 و600 هاجر الكثيرون إلى الجنوب واضطروا إلى استصلاح الأرضي وبناء مشاريع الري والمواصلات التي تطلب وجود دولة مركزية قوية. ولم يكن ممكناً استخدام فوائض الجنوب دون وسائل مواصلات جيدة وأقنية للنقل. وقد بنيت القناة الكبرى بين نهري اليانغ تسي والأصفر في عام 611 بواسطة السخرة (ص 464). وأدى تكاثر الفوائض إلى ازدياد سلع الترف وتوسيع التبادل ونشوء سوق واسعة واقتصراد نقدي وتخصيص اقتصادي للمناطق. وعلى الصعيد الاجتماعي تكاثرت طبقتنا الحرفيين والتجار في المدن كما ازدهرت البيروقراطية (ص 465).

إكتسب التجار ورجال الأعمال حرية أوسع مع تحطم الدولة المركزية في أواخر أيام سلالة ثانج وتزايد نشاط العواصم المحلية والمدن. وكانت التغييرات في ملكية الأرض أقل وضوحاً. فقد كان معظم الفلاحين، في بداية ثانج، من المالكين الصغار، وتشكل الجيش من ميليشيات فلاحية مدعومة بفرق من الترك بقيادة ضباط محترفين. ولم يخمد عصيان 755 - 763 إلا عندما تم اللجوء إلى استخدام البربرة من الخارج (ص 466).

إكتسب المجتمع الصيني «صيغة الحداثة» حوالي العام 1000م. وكان أكثر تقدماً من أوروبا، لكن هناك عوامل منعته من التطور: أولها، أن الزراعة الصينية اعتمدت على العمل البشري بعكس الزراعة الأوروبية التي اعتمدت على استخدام كثيف للحيوانات (والمحركات الثقيلة) فكانت هذه الأخرى أكثر إنتاجية وذات فوائض أعلى (ص 467)؛ ثانياً، أن الاستهلاك المتدني حصر الحاجة للمواد المصنوعة والسلع الترفية بال بلاط والطبقة العليا التي احتكرت الفرائض، واقتصرت الصناعة على سلع الترف، وذلك بعكس الصناعة الأوروبية التي أنتجت سلعاً رخيصة خشنة منذ البداية لسوق أوسع (ملابس صوفية، سمك

هيرينغ مدخن، أدوات حديدية وأسلحة فولاذية)؛ ثالثها، أن التجار الصينيين بقوا غير محترفين، إذ صنفهم الكونفوشيوسيون في أدنى السلم الاجتماعي، وكان قسم كبير منهم عرباً وفرساً وصغداً وأويغور (ص 468). والفارق الأساسي بين الشرق الأقصى والغرب الأقصى أن عناصر «الحداثة» الصينية بقيت معلبة في علاقات اجتماعية زراعية قديمة؛ ولم تستطع الطبقة التجارية أو الحرافية أن تتحدى النظام والقيم السائدة، ولم تنشأ لديها الإرادة من أجل ذلك. وإذا كان لاختراعات الورق والبورسلان والطباعة والبارود أثر في الصين، إلا أنها أدت إلى مفاعيل مختلفة حين استخدماها لاحقاً في أوروبا مجتمع أقل تنظيماً وتراثية ودون بيروقراطية أو هرمية اجتماعية مستعصية على التحدي (ص 468).

كان الامبراطور وبلاطه راعيي الفنون الأساسية. ومارست سلالة ثانج سياسة تسامح ديني. فقد رعى الامبراطور والكونفوشيوسية والتاوية والبوذية، لكنه تسامح مع المانوية والنسطورية والزرادشتية وال المسلمين، وساد الاختلاط في المدن والبلدات (ص 469). وحتى منتصف القرن السابع استمرت ترجمة الكتب الهندية. ونشأت بوذية محلية سميت شان (زن في اليابان) واعتمدت مبدأ الخلاص عن طريق التنوير الباهر. وقد تبنت الكونفوشيوسية والتاوية بعض أفكار البوذية؛ لكن هذه ضعفت مع نشوء الكونفوشيوسية الجديدة، عام 800، التي استوعلت الكثير من أفكار التاوية والبوذية. وتواترت علاقات البوذية مع الطبقات الفقيرة بسبب غنى معابدها الفاحش، إضافة إلى نمو الاتجاهات العلمانية في الصين. وحدثت موجات اضطهاد ديني، بين عامي 843 و846، ضد المانوية (تجار الأويغور والمسلمين والأديان الأخرى). بعدها، لم يبق في الصين دين خارجي ينافس الدينين الصينيين الأصليين (ص 472). كان الانتصار على أديان الخلاص دفاعاً ضد الغزاة الأجانب والتجار الغرباء، لكنه أدى إلى ضيق أفق قيد التطور الثقافي الصيني اللاحق. وقد بنيت العلوم الطبيعية، وخاصة علم الفلك والرياضيات والطب، دون تأثيرات خارجية كبرى عليها، فيما عدا بعض التأثيرات الهندية في علم الفلك (ص 473).

شهدت مرحلة سلالة ثانج وبداية عصر سونج غنى وازدهاراً حضارياً جعلا

منها عصراً ذهبياً في تاريخ الصين؛ هذا على الرغم من أن استمراريتها وطبيعتها المحافظة حرماً العصر من نشوء شخصيات متميزة. لكن الإسلام، بسبب دوغمائته ومنعاته ضد الإنجازات الوثنية، كان حاجزاً في وجه تسرب ثقافة عصر النهضة إلى الخارج لتحدث تأثيرات لدى الشعوب الأوروasiatic تشبة تأثيرات الهيلينية أو ثقافة هند الجوبتا. وبقيت حضارة الصين منحصرة في آسيا القصوى إلى أن جاء المغول ولفتوا انتباه العالم إليها (ص 476).

لقد انتشرت الحضارة الصينية في وادي الميكونج والتيت، بحيث تموضع الدين الهندي مع الثقافة العلمانية الصينية، كما وقعت اليابان وكوريا تحت التأثير الصيني. في هذه الفترة، أدى توسيع القفافس الثلاث، الصينية والإسلامية والهندية، إلى ملء الفراغات التي كانت تفصل الحضارات الآسيوية الكبرى عن بعضها (ص 479).

#### (و) الأطراف

توسيع الأيكومين الأوروبي بين القرنين السابع والعشرين ونشأت منطقة متصلة بين المحيط الهادئ والأطلسي، وبين المحيط الهندي والغابات الشمالية. ولم تبق على عزتها سوى جماعات متفرقة من الصيادين في الشريط الشمالي. في الفترة نفسها نفذت خطوط التجارة إلى جنوب الصحراء الإفريقية الكبرى بواسطة الجمال التي كان الرومان قد أدخلوها إلى شمال إفريقيا. وأقامت التجارة البحرية العربية محطات على ساحل إفريقيا الشرقي. وفي المحيط الباسفيكي كانت جماعات من البولينيزيين والميلانيزيين ذوي التنظيم الاجتماعي المعقد تسكن الجزر وتقوم برحلات بحرية طويلة المدى؛ وربما وصل بعضهم، بفضل تقاذف الرياح لسفنهما، إلى الأمريكتين (ص 480). وفي القارة الأمريكية تطورت، بعد عام 600، حضارة المايا في أميركا الوسطى، وحضارة المكسيك والبيرو، واتسع تأثيرها كما في العالم القديم وإن بشكل أقل وضوحاً وتقدماً (ص 481).

## ثانياً: الغزاة من السهوب والغرب الأقصى الأوروبي (1000 - 1500م)

### (أ) مقدمة

أصيب توازن الايكومين بين عامي 1000 و1500م بحدثين كان لهما أثر حاسم؛ أحدهما، تدفق الشعوب التركية والمغولية من السهوب اليواراسية الذي بلغ أقصاه في القرن الثالث عشر؛ وثانيهما، صعود حضارة ذات زخم في أوروبا الغربية. ولم ينج من غزوات مقاتلي السهوب سوى اليابان وجزء من جنوب شرقي آسيا وأقصى جنوب الهند وأوروبا الغربية. وهي تذكر بغزوات راكبي عربات القتال والسلاح البرونزي في الألف الثاني قبل الميلاد (ص 484).

### (ب) تغلغل وغزو من السهوب

استفادت الحضارة الإسلامية بعض الشيء من غزوات الترك والمغول رغم تأثيراتها السلبية. وعلى العموم كانت حضارات الإسلام والصين والهند ذات بُنى أكثر صلابة وأقل تأثراً بالخارج من الحضارة الأوروبية التي كانت محظوظة في ذلك (ص 485).

في القرن الخامس عشر، كان يedo للمراقب أن حضارة الإسلام لا الحضارة الأوروبية هي التي سوف تقدم بخطى واسعة وتسير على العالم؛ ولم تكن هناك دلائل كثيرة تشير إلى التقدم الكبير الذي سوف تحرزه أوروبا (ص 485).

كانت الموجات التركية تسكن مناطق انتقالية قبل دخولها إلى العالم الإسلامي، ولم يكن بين تلك المناطق والعالم الإسلامي خط فاصل واضح المعالم. فكانت تلك الموجات تتأقلم قبل دخولها إلى إيران، كما كانت تتبني المذهب السنوي تمييزاً لها عن الحكم الشيعة الذين كانوا يحكمون معظم العالم الإسلامي حوالي عام 1000م، إضافة إلى تبنيها للجهاد دفاعاً عن الإسلام كمهمة أساسية لها. وقد شكل الترك غالبية الحكم والعسكر في بلاد الإسلام منذ القرن الحادي عشر الميلادي. وكانوا السيف القاطع ضد المسيحية والهندوسية. أما في الصين، فلم يكن بإمكان الغزاة أن يتغللوا تدريجياً كما في إيران، بل كان على القبائل الغازية أن تتبني حضارة الصين وأسلوب

عيشها، أو أن تدخل بالقوة المسلحة وتواجه العصيان المحلي بعد ذلك ضدّها (ص 487).

تعاقبت الغزوات التركية على ثلات مراحل؛ أولاًها: مرحلة قيام دولة تسيطر سلطتها على أجزاء من بلاد الإسلام ثم تتفكك بعد بضعة عقود، بدايةً بدولة السلاجقة، في عام 1037، التي مهدت للأيوبيين ثم المماليك والتي بلغت ذروتها في معركة منزيكرت ضد البيزنطيين في عام 1072؛ ودولة محمود الغزنوي (في الشرق) الذي انطلق من الأفغان ليغزو البنجاب وحوض الكانج (999 - 1030) لتعاقب بعده عدة دول تفتقر إلى الاستقرار الذي لم يتحقق إلا مع قيام سلطنة دلهي في عام 1206؛ ثانيتها: مرحلة الغزو المغولي، في القرن الثالث عشر، الذي شمل معظم أوراسيا والذي كان الأكثر دراماتيكية في تاريخ الغزوات البربرية (ص 491).

وفي المرحلة الثالثة واجه أبناء جنكيز خان مسألة حكم مناطق واسعة دون جيش أبىهم الذي وضع تحت إمرة الأخ الأصغر (ص 492). وصار بإمكان الترك الذي انضموا في الجيش المغولي أن يظهروا أنفسهم ويعملوا لاستعادة وضعهم الخاص بهم. وفي عام 1257 تحالف مغول الفولغا (القطبي الذهبية) مع المماليك ضد مغول إيران. ثم في عام 1295 اعتنق خان مغول إيران الإسلام. وانتشر الإسلام لاحقاً بين المغول، وتوسّع ليشمل وسط السهوب نفسها.

لم يكن عدم الاستقرار السياسي عائقاً في وجه التوسيع الإسلامي؛ بل استمر التوسيع رغم الفوضى السياسية على حساب أوروبا المسيحية والهند (ص 493). ومنذ حوالي العام 1500 انقلبت أحوال شعوب السهوب إذ أدى انتشار الأسلحة النارية إلى الاستغناء عن الفرسان الذين مانعوا في استخدام هذه الأسلحة. وكان تحول ميزان القوى لصالح المشاة على حساب الفرسان بمثابة وضع حد للغزارة البدو. وربما كان أعظم انتصارات الغزاة من أهل السهوب (أي المغول) هو الذي عجل في نهايتهم (ص 494).

### (ج) ردة الفعل الإسلامية تجاه ضغوط أهل السهوب

أدى تغلغل الترك في المجتمع الإسلامي وانتصارات المغول إلى زعزعة التسوية التاريخية التي كانت قد أقامت توازناً بين الواقع والمثل الأعلى. ورغم الفوضى السياسية بقي المجتمع الإسلامي مزدهراً وقدراً على تحقيق نفسه وفرض شروطه؛ فحتى أكثر الحكماء بعدها عن التدين كانوا مضطرين لإفساح المجال لرجال الإدارة رعاية أحكام الشريعة (ص 495). وكانت لموسم الحج السنوي أهمية خاصة في بناء جسم من العلماء والقضاة على مستوى العالم الإسلامي يتتجاوز الانقسامات السياسية. وقد انتشرت الطرق الصوفية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر لتجاوز الفهم الميكانيكي لدى العلماء ومن أجل الاتصال المباشر بالله. وتشكلت الأصناف المهنية من جماعات تمحورت حول طقوس شبه صوفية. وكانت هذه تنظيمات حرفية مدنية؛ لكنها لم تنجح في إقامة حكومات مستقلة إذ لم يكن لديها طموحات سياسية. فكان الحكم للعسكر، أما المجتمع فقد قادته الصوفية والأصناف إلى جانب نظام تعليمي كوني كما تشير رحلات ابن بطوطة (ص 496). ربطت الصوفية بين المدن وساهمت في دمج المجتمع وفي استيعاب المسيحيين وانتشار تقدير الأديان. وعلى الرغم من صعوبة تكوين تصور عام حول الأوضاع الاقتصادية، إلا أنه يمكن القول إن تركيا وإيران ازدهرتا على حساب المركز القديم في العراق وببلاد الشام ومصر بين عامي 1000 و1500 (ص 497).

لقد ساهمت الصوفية غير الأرثوذك司ية في نشر الإسلام في مناطق جديدة، مما ألقى على كاهل العلماء مهمة كبرى هي العمل على تحويلها إلى الأرثوذكسيّة. وكان العثمانيون استثناءً في هذا الجو من التجزؤ السياسي والديني؛ وهم اعتمدوا على الغزاة عندما نشأت دولتهم على الحدود الفاصلة بين البلاد الإسلامية والمسيحية، ثم جرى الاعتماد على العبيد. وكان للطريقة البكتاشية المرتبطة بالعسكر دور في استمرار التسامح حيال المسيحية (ص 498). ومع تراجع الغزاة لصالح العبيد والعلماء في الجيش والدولة توقف التحول الجماعي الإسلامي إلا في البوسنة، التي كانت مسيحية بوغوميلية، وألبانيا ذات التراث في الحروب الأهلية (ص 499). ولم تنجح دولة إسلامية أخرى في تحقيق

النجاح الذي أحرزه العثمانيون، سواء في إسبانيا حيث فشل المسلمون في وقف التوسع المسيحي، أو في آسيا حيث تعاقب حكام مغامرون.

ولم يؤد التفكك السياسي وهيمنة الترك إلى تراجع الازدهار في الحياة الثقافية والفنية. حتى أواخر القرن الحادى عشر ظلّ تصنيفُ العلوم إلى فلسفة عقلانية وأدب وعلوم دينية. ولم يمنع التناحر والاضطراب من طلب العلم، بل كانا سبباً لدى الحكماء والأمراء للسعى إلى تحسين صورتهم عن طريق تبني الأدباء وال فلاسفة، فتقدمت العمارة والرياضيات والطب والكيمياء وعلم البصريات (ص 501). وفي إطار التجاذب بين علوم الدين والفلسفة قام جدلٌ واسع حول قدم العالم أو حدوته. في النهاية خضعت العقلانية للدوغما (العقيدة) لكن ليس دون معركة عبر عنها الغزالى في النهاية. وقد تحقق انتصار العلوم الإسلامية بسبب تحالفها مع المشاعر الشعبية الدينية المتجسدة في الصوفية - التي وجدت تعبيراً عنها عند الغزالى أيضاً (ص 502). خنق هذا التركيب (Synthesis) إمكانيات الإبداع في العلم والفلسفة وأدى إلى تجمد الفكر الإسلامي في وقت بدأ العقل الأوروبي يستفيق فيه. وعلى الرغم من دور المدارس، التي كانت ذات أصل بوذى، إلا أنها اعتمدت على الذاكرة والحفظ الجماعي لنصوص معترف بها (ص 503) وانتهت إلى تبني وتدعم سلطة معرفية. واستمر بريق المعرفة الإسلامية في علوم بعيدة عن الدين، فقط كما في التاريخ (ابن خلدون) والجغرافية (ابن بطوطة). وبعد القرن الثاني عشر ساد التجاذب بين العلماء والصوفية (ص 504).

وتحت حكم الترك صارت العربية مقتصرة على العلوم الإسلامية، بينما استخدمت التركية في الإدارة وال الحرب، والفارسية في الأدب. وعندما بدأت أوروبا تستفيق وجد الإسلام نفسه مسجونةً بين مطرقة العلماء وسندان الصوفية. ولم يؤد نجاح الصوفية في القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر في جمع العناصر المتناثرة وتركيبها إلا إلى تجمد المجتمع الإسلامي. لكن الفنون المرئية (البصرية) لم يصبها الشلل، خاصة في العمارة والرسم، حيث استمر الإبداع (ص 506). وكانت العمارة هي الفن الشعبي

الأول في الإسلام (ص 507).

(د) الهندوس واليسوعيون واليهود تحت الحكم الإسلامي  
 سمح تسامح الإسلام حال «أهل الكتاب» ببقاء أقليات كبيرة من المسيحيين واليهود رغم مغريات التحول إلى الإسلام. وبالرغم من الحملات الصليبية بقي التسامح سائداً، لكن هذا الأمر تغير بعد غزو المغول، إذ بنت المسيحية آمالها على انتصار المغول وتحولهم إليها. لكنهم اختاروا الإسلام، وكان اعتناق خان إيران للإسلام بدايةً لحملات اضطهاد ضد المسيحيين دون اليهود (ص 508).

أما الهندوس والبوذية فلم يكونوا من أهل الكتاب. وعندما غزا المسلمون الهند أخذوا ثروات معايدها الغنية ودمروا الكثير منها. ونتج عن ذلك زوال البوذية من الهند، بخلاف الهندوسية التي كانت عميقه الجذور. مع الزمن جرى تعديل النظرة إلى الكافر، فقد كان هناك مرتزقة مسلمون في جيوش الهندوس وأمراء هندوس في جيوش المسلمين (ص 510). وفي حين مارس الحكم المسلمون سياسة لا تهم بأن يعتنق الرعايا الهندوس الإسلام، ظهرت محاولات هندوسية للتوفيق بين الإسلام والهندوسية. وكان السيخ نتاج أبرز هذه المحاولات (ص 511).

في عام 989م اعتنق أمير كييف الروسي المسيحية الأرثوذكسية مما ساهم في انتشارها في الأراضي الواسعة شمال البحر الأسود. وفي عام 1018 أزال إمبراطور البيزنطيين بأسيل الثاني إمبراطورية البلغار ونجح في توحيد الإغريق والسلاف في البلقان في بنية واحدة. وكان الأرثوذكس يكرهون الفرنجة أكثر من المسلمين لأن الفرنجة كانوا يحاولون دائمًا فرض مذهبهم بالقوة (ص 514). وعندما كان على الأرثوذكس الاختيار بين هيمنة الفرنجة أو المغول (في روسيا) أو الترك كانوا يميلون دائمًا ضد الفرنجة. ولم يكن ضعف الدولة البيزنطية ومملكتها نتيجة عوامل داخلية وحسب، بل ساهمت فيه قوة الأعداء من الفرنجة والترك والمغول أيضًا. فمنذ عام 1054، عندما مات آخر حكام كييف وقعت السهوب الأوكرانية تحت سيطرة الترك والقبجاق. وبعد جيل واحد أضاع البيزنطيون الأنضول للأتراك، كما أنّ النورمان الذين انتزعوا صقلية من المسلمين سيطروا

كذلك على ممتلكات البيزنطيين في إيطاليا وهاجموا ممتلكاتهم في البلقان. كما فرض البنادقة سيطرتهم على تجارة البيزنطيين (ص 514). وعانت الامبراطورية البيزنطية في القرن الحادي عشر من الفساد ما عانته الدولة العباسية في القرن العاشر (ص 515). وتراحت الدولة المركزية أمام الأمراء المحليين في القرن الثاني عشر وصارت تعتمد على المرتزقة. وبعد باسيل الثاني احتدم الصراع بين طبقتين طفيليتيين من أسياد الأرض وموظفي الدولة، مما أعاد الاقتصاد والتجارة (ص 516). وسارت الامبراطورية نحو موتها بطيء رغم المحاولات المتقطعة للنهوض. فقد كان التراجع الاقتصادي والاجتماعي أعمق جذوراً مما يستطيع الحكام إيجاد حلّ له. في عام 1167 خسروا الصرب، وخسروا بلغاريا في 1187؛ لكن الأمر الأسوأ والأكثر خطورة كان احتلال الفرنجة ل القدسية عام 1204 (ص 518). قبل سقوط القدسية كان الأتراك قد هيمموا على البلقان، وكان الفلاحون الإغريق والصرب والبلغار يفضلونهم على الأرستقراطية المسيحية (ص 519).

انهارت روسيا في القرن الثالث عشر تحت ضربات المغول لكنها عادت للنهوض في القرن الخامس عشر. وكان أهلها يفضلون كذلك المغول على اللاتين والفرسان التيوتونيين. لقد حقق الروس تقدماً كبيراً في أيام المغول. تدريجياً صاروا إدارة شبه مستقلة، وأزالوا الغابات لتوسيع الأرض الزراعية، كما اشتغلوا بالتجارة والصناعة. وعندما بدأ القطيعي الذهبي بالانهيار ظهرت عدة إمارات مستقلة أهمها موسكو التي أعلنت استقلالها إيفان الثالث (1462 - 1505) (ص 520). وقد صارت موسكو روما الثالثة بعد سقوط القدسية.

مع تراجع الامبراطورية البيزنطية، ازدهرت الحياة الفنية والثقافية في العاصمة بسبب تمركز الفوائض فيها. وفيما عدا التطورات في التاريخ والأدب والفلسفة والشعر، نشأت صوفية أرثوذكسية توافي الصوفية الإسلامية. وكان التصوف بمثابة دين شعبي حمام من اعتناق الإسلام. لكن الثقافة العليا للمسيحية الأرثوذكسية لم تستطع أن تنافس الحضارة الأوروبية الصاعدة سوى في المجال الفني (ص 523).

## (ه) الشرق الأقصى

تعرضت الصين بين عامي 1000 و 1500 لغزوات الترك والمغول. وتراوح الحكم فيها بين محلي وأجنبي كما منذ أيام الهان. لكنه في عام 1000 حدث تحول ذو مغزى إذ قام توازن بين العناصر الريفية والمدينية، كما بين البيروقراطية وأسياد الأرض من جهة والتجار والحرفيين من جهة أخرى (ص 524)؛ هذا على الرغم من أن التقاليد الصينية القديمة تعطي الأفضلية لملaki الأرض والبيروقراطية على التجار والحرفيين. وسمح التقدم الحاصل في الملاحة، في استخدام البوصلة وفي بناء السفن، للصينيين بالحلول مكان التجار المسلمين في البحر الجنوبي. وعندما جاء المغول شجعوا على ذلك (ص 525). وفي أيام سلالة مينغ أرسلوا بعثات وحملات بحرية بعيدة المدى بقيادة الجنرال شانغ هو، الذي كان خصياً من أصل مسلم، ووصلوا إلى الهند وعمان وغرب إفريقيا. لكنهم أوقفوا هذه الحملات في عام 1424 التي كان بإمكانها، لو استمرت، أن تهزم البرتغاليين فيما بعد. ومن المؤكد أن السفن الصينية بدأت تستخدم المدفعية منذ عام 1391 (ص 526).

ساهمت إيديولوجيا الكونفوشيوسية التي تعتبر التجار شرّاً لا بد منه في عودة غلبة الريف على المدينة. وتم التوصل إلى تطوير مواد زراعية جديدة أهمها الرز الذي ينضج في 60 يوماً ويعطي موسمين في العام (ص 527). لكن العائلات التجارية الصينية كانت دائماً تفضل تحويل أموالها إلى ملكية الأرض، مما شكل عقبة في وجه تقدم الصناعة رغم أن الصين كانت أكثر تقدماً من الحضارات الأخرى في المجالات التقنية وبقيت مكتشفات هامة من أصل صيني مثل البارود والبوصلة والطباعة ذات أثر محدود في الصين أقل مما في أوروبا (ص 529). ومنذ أيام المغول عادت أهمية البيروقراطية إلى الصعود (ص 530).

إعتماد العقل الصيني على اعتبار كل الأجانب برابرة (ص 531). وما كان يلجم إلى التجريد إلا نادراً. فكانت الإشكالية الأساسية المطروحة أمامهم هي الحياة المستقيمة مضافاً إليها الحكمة. وبقيت الصين عالماً لوحده متميزةً عن غيره

(ص 534). لقد أثارت عظمة الصين وضخامتها إعجاب جيرانها الذين سعوا لتقليدها (ص 535). فقد صارت منشوريا جزءاً من اليابان؛ كذلك إقليم يونان، رغم انتشار الإسلام فيه. وخضعت كوريا وأنام للتأثير الصيني، لكنهما بقيتا مستقلتين لأسباب لغوية، كذلك التبت ومنغوليا اللتان بقيتا مستقلتين لأسباب جغرافية. أما اليابان التي شكلت بين القرنين التاسع والثاني عشر امبراطورية بيروقراطية على النمط السائد في الصين في عهد سلالة ثانج، فقد تحولت إلى فيodalية شبيهة بالأوروبية بعد ذلك (ص 536). وانتشرت فيها مذاهب بوذية متعددة، لكن ديانة الشنتو (عبادة آلهة الشمس) استمر في النهوض (ص 537).

باختصار، حافظت حضارات الشرق على نفس الأنماط منذ ألف الثاني قبل الميلاد في المجالين الصيني والهندي، ومنذ ألف الثالث قبل الميلاد في الشرق الأوسط.

#### (و) الغرب الأقصى

عانت الحضارة الأوروبية من عدم استقرار باز بالمقارنة مع الحضارات الأخرى. فقد وصلت حضارتها إلى قمة عالية في العصر الكلاسيكي ثم انهارت انهياراً فظيعاً بعد الرومان. وفي القرن الحادي عشر كان المجتمع الأوروبي دون مؤسسات عريقة تقلّ كأهله ودون تاريخ يشكل عيناً عليه مما أفسح المجال للإبداع التقني (ص 538).

تتمتع أوروبا بميزات جغرافية هامة كالسهول الواسعة التي أمكن زراعتها مع تطوير المحراث الثقيل، والشواطئ المتعرجة التي أتاحت وجود العديد من الموانئ، والأنهار الصالحة للملاحة بالمراتب الكبيرة، ووفرة المعادن خاصة الحديد. وساهم التراث البربرى، منذ عصر البرونز ثم عصر القبائل герمانية، في تكوين مزاج قتالي شبيه بما في اليابان. وتجاذبها النقاشات: بين الدولة الجغرافية المحددة الحدود، والبابوية التي تبسط سلطتها على الجميع، وبين الإيمان والعقل، وبين العنف وحكم القانون، وبين العامية واللاتينية، وبين الأمة القومية والمسيحية. حوت هذه الحضارة نقاشات أكثر من غيرها، وأدى ذلك

إلى تطور ثوري مستمر، وكان مصدر فرادتها (ص 539).

نجحت أوروبا في القرن العاشر في رد الغزوات البربرية وإيقافها ثم التوسع على حسابها. وشهدت حروباً وحشية في الداخل والخارج. وكان الحكم الجامع للإمبراطور والبابا يلقى معارضة الملك والإقطاعي والدولة - المدينة. وقد تحالف الإمبراطور ورجال الدين في ألمانيا، حتى عام 1059، ضد النبلاء وضد الوجود البيزنطي في إيطاليا (ص 540).

في عام 910 عقد مجمع كلوني للإصلاح وتحرير الأساقفة من أن يعينهم الإمبراطور. ولم يكن لدى البابا جيش، بل استخدم وسائل الترهيب بالتحريم والعزل (ص 541). لكن تعاقب عدد من الملوك الأتقياء أدى إلى تأجيل الصراع المفتوح بين البابا والممالك القومية حتى عام 1296 عندما بدأ ملكا فرنسا وإنجلترا بجمع الضرائب من رجال الدين. وفي نفس الوقت تحالف الملوك مع أهل المدن لحمايتهم من الإقطاعيين (ص 542). وسيكون أمام الدول القومية التي ظهرت في القرن الخامس عشر مستقبل باهر، لكن مدن إيطاليا وغربي ألمانيا وبحر الشمال والبلطيق بقيت هي المراكز الرئيسية للثقافة والاقتصاد في القرنين الرابع عشر والخامس عشر (ص 543). وقد استطاعت اتحادات مدن اللومبارد والهانز وكانتونات سويسرا، وجمهورية هولندا لاحقاً، مواجهة الدول القومية. إن التنوع السياسي والاضطراب لم يمنعنها التقدم الثقافي والازدهار الاقتصادي بل كانا سببين لها. ولو نجحت البابوية أو الإمبراطورية في فرض سيطرتها لما حدث ذلك التقدم والازدهار (ص 544).

كان القرنان الحادي عشر والثاني عشر عصر توسيع استيطاني في داخل أوروبا الغربية، فقد حللت الحقول الزراعية مكان الغابات. وبين القرنين الحادي عشر والرابع عشر جرى اعتناق المسيحية في هنغاريا وبولندا والدانمارك والنروج والسديد ولituania. وعندما توقفت الحملات الصليبية ضد المسلمين في 1299 قاد فرسان التيوتونية صليبيات أخرى ضد الوثنية في شرق أوروبا (ص 545). لكن ألكسندر نيفسكي في روسيا نجح بين عامي 1240 و1242 في صدتها. أما في المتوسط، فقد كانت الحملات الأولى بربة (في إسبانيا وإيطاليا

والصلبيات ضد المسلمين) ثم بحرية للسيطرة على تجارة المتوسط. ولم يكن عصر النهضة ممكناً دون هذه الحملات. وقد ساعد كره أصل المتوسط الشرقي من المسيحيين والمسلمين لفرنسا على انتصار العثمانيين. وعندما تحطمت أول محاولة بحرية ضد العثمانيين، اتجه الأوروبيون إلى المحيطات (ص 546).

إنعكس المغامرات الاقتصادية والسياسية والعسكرية في الفكر والفن، خاصة في المدن وفي شمال فرنسا وإيطاليا، وظهرت آثارها في الفن القوطي والفلسفة السكولاستية. وترجمت كتب المسلمين الذين كانوا أكثر تقدماً (ص 547). ودرس أرسطو في القرن الثالث عشر من خلال كتب ابن رشد وابن ميمون. حاول رجال الدين منع ذلك، لكن التسوية بين العقل والإيمان هي التي انتصرت (ص 549). واستعيد القانون الروماني، الذي كان جوستينيان قد دونه، ووضع فوق الأعراف المحلية. وكان ذلك وسيلةً للسياسة المركزية بيد الكنيسة (ص 552). لكنه كان أيضاً وسيلةً يمكن للدولة السياسية استخدامها. وتم فصل المجالين بالاتفاق بين الملوك والباباوات. وكان انتشار استخدام اللغات المحلية وظهور الهرطقات الدينية أمرين بارزين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر (ص 553). في المقابل، تشكلت الأخويات الفرنسيسكانية والدومينيكية لمواجهةها؛ وذلك بعد أن تردد الباباوات في الترجيح لها بسبب دعوتها إلى تعارض الملكية الخاصة مع الدين (ص 554). ومن جهة أخرى، انتشرت النزعة الإنسانية، خاصة في إيطاليا. وكان ذلك تأكيداً للاهتمام بهذا العالم وتعبيرًا عن الشكوك بالعالم الآخر أو عدم الاهتمام به. وتراجعت المدن بسبب الطاعون (1348 - 1350) وحرب المئة عام (1337 - 1453). وتفجرت الثورات الفلاحية والهرطقات على مدى واسع لتعبر عن النسمة الشعبية ورفض المؤسسات والنظام القائم، في القرن الرابع عشر (ص 556).

لم يكن تاريخ الأوروبيون علينا عليهم، بل أقبلوا منذ القرن الحادي عشر على دراسة الحضارات الكلاسيكية والإسلامية والبيزنطية. وشاركت الجماهير في الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية. ولم تقتصر التجارة على المواد الترفية. وكانت النتيجة تعثّة الموارد البشرية والمادية بدرجات أكبر مما في المجتمعات الأخرى.

الآسيوية (ص 559).

### (ز) أطراف الايكومين

أما في أطراف الايكومين، فقد انضمت أوراسيا الوسطى والشمالية إلى الدائرة التجارية الحضارية في حوالي العام 1000م. وبقيت التندرا القطبية وحدها خارجها كمرتع للصيادين. وفي القرون الخمسة التالية (1000 - 1500) جرى استيطان الغابات في شمالي أوروبا والشرق الأقصى (في منشوريا ووادي الامور واليابان الشمالية). في هذه الفترة أيضاً تشابكت السهوب مع المناطق الحضارية. وفي المناطق الجنوبية بقي حزام أوسع خارج الايكومين حتى عام 1000 (في إفريقيا وأسترلазيا وجحوب في دلتا الميكونغ). وبقيت أسترلازيا نائية، لكن المناطق الأخرى جرى استيعابها في الحضارات الصينية والهندية والإسلامية (ص 560). وفي الأمريكتين جرى تحول واسع في حضارات المكسيك والبيرو وأمريكا الوسطى بين عامي 1000 و1500، إذ تطورت المدن وتوسعت في مراكز العبادة السابقة (ص 561).

### ثالثاً: مرحلة الهيمنة الغربية من عام 1500م إلى الوقت الحاضر

مقدمة

يرمز العام 1500 إلى التحرك باتجاه العصر الحديث في أوروبا والعالم. وأدى تطور الملاحة إلى ربط واجهة أوروبا الأطلسية بالعالم وجعلها مركزاً هاماً للتبادل التجاري. وقد استفادت أوروبا من أدوات العمل التي اخترعها وطورها الآخرون. وخسر العالم الإسلامي مركزيته في العالم القديم.

إن مفتاح التاريخ العالمي بعد عام 1500م هو نمو هيمنة أوروبا الغربية، ثم المجتمعات ذات النمط الأوروبي والقائمة على جانبي الأطلسي، على العالم. وكانت فترة 1500 - 1700 مرحلة انتقال من زمن بري إلى زمن بحري. ولم تتراجع هيمنة الأوروبية إلا عندما جرى تحديث بقية العالم (ص 566).

## تحدي الغرب الأقصى للعالم 1500 – 1700

### أـ الاكتشافات الأوروبية الكبرى وأثارها على العالم

امتلك الأوروبيون، بحلول العام 1500، طلاسم القوة الثلاثة التي أثاحت لهم خلال نصف قرن السيطرة على البحار وعلى العالم: أولها، الاندفاع وحب المغامرة؛ ثانيها، التقنيات العسكرية المتقدمة والمعقدة خاصة في الشؤون البحرية؛ ثالثها، المناعة ضد الأوبئة (ص 569). فقد تواصلت ببربرية العصر البرونزي لدى طبقة التجار وتولدت منها روح عسكرية لا يقابلها سوى الروح القتالية عند اليابانيين والمسلمين. واستخدمت البوصلة التي سمحت بالملاحة بعيداً عن الشواطئ بعد أن كانت تقتصر على السير في محاذاتها. واستخدم فيها علم الفلك والرياضيات (ص 570). وتطور بناء السفن باتجاه اختصار نسبة العرض إلى الطول واستخدام عدة أشرعة بدل شراع واحد على عمود الصاري؛ إضافة إلى استعمال سفن كبيرة أكثر تجهيزاً وصلاحيّة لتركيز قواعد المدفعية. وكانت الأمراض سلاحاً ثالثاً إذ اكتسب الأوروبيون مناعة ضد الأوبئة، وحملوها معهم إلى أميركا لتسبب عدواها موت معظم السكان هناك (ص 571).

تزايد السكان عندما لم تعد الأوبئة سبباً لتناقصهم. وحدث ذلك بسبب اكتساب المناعة وقبل التقدم الطبي. وساهم انتقال زراعة البطاطا والممايز والبطاطا الحلوة إلى العالم القديم في تزايد السكان إذ كان عاملاً في تغذية أفضل.

في القرن السادس عشر هيمن البرتغاليون والاسبان في الشرق الأقصى وأميركا، ولم تبلغ دولة أوروبية أخرى مبلغ قوتها. لكن ميزان القوى بدأ بالتحول في النصف الثاني من القرن السادس عشر بعد ثورة الهولنديين ضد إسبانيا في عام 1568، وبعد انتصار الإنجليز على الإسبان في 1588. وفي القرن السابع عشر كانت المنافسة الرئيسية بين فرنسا وإنجلترا (ص 574). لقد انطلقت مع الفتوحات الإيبريرية مرحلة جديدة من التاريخ البشري، لكن معالم العالم القديم ما انهارت دفعة واحدة. فقد حدثت فتوحات الأوزيكي فيما وراء نهر الأوكسوس (1507 – 1512) وغلبة المغول في الهند (1526 – 1688)

وافتتاحات المانشو في الصين (1621 - 1683)، ويقي المسلمين يحققون الانتصارات في القرن السابع عشر رغم أن الغرب حاصرهم عبر البحار، وتوسعوا في أوروبا وأفريقيا وأسيا (ص 577). لكن نواحي العالم الإسلامي والصين والهند بقيت دون تأثير، إذ انحصر التماس على الشواطئ. قبل عام 1700 كانت الأفكار التي تعبر البحار قليلة وما تزال أوروبا تأخذ دون أن تعطي. إن تناقضات أوروبا الداخلية هي التي جعلتها تسيطر (ص 578).

### **ب - التحول الأوروبي 1500 - 1650**

من معالم هذه الفترة تراجع المحلي (المدينة والإقطاع) والكوني (الإمبراطور والبابا) في وجه الدولة الجغرافية التي كانت الدولة القومية أهم تجلياتها (ص 578). وحدث دول أوروبا الحديثة مؤسسات ووحدات فروسطية لخلق دول قومية في الشمال والغرب وإمبراطوريات في الوسط والشرق. وكانت أكثر الدول قوة وتأثيراً، منذ القرن السادس عشر، هي التي تقع على ساحل الأطلسي (ص 579).

تميز إسبانيا في القرن السادس عشر باستخدام محاكم التفتيش والتحالف مع الكنيسة الكاثوليكية. تحولت قيادة أوروبا في القرن السابع عشر إلى فرنسا وهولندا وإنجلترا. في فرنسا، تحالف ريشيليو الكاردينال الكاثوليكي مع البروتستانت في حروب الثلاثين سنة، وكان هناك اعتراف بتقدم فرنسا وأمتيازات النبلاء ومصالح المدن وحقوق الفلاحين. وأعطي دور أكبر للطبقة الوسطى في هولندا وإنجلترا. وكان التوازن في إنجلترا بين الأرستقراطية وسكان المدن، كما كان للبرلمان اليد الطولى في جميع الشؤون المحلية. أما أوروبا الشرقية، ففيها جمهورية أرستقراطية أضفت الملك في بولندا (ص 580). رغم هذا التنوع واستمرار العادات والأعراف القديمة، تحقق توحيد (Consolidation) إداري. لكن أهم النتائج كانت على الصعيد العسكري، إذ تزايدت القوة النارية، واستخدمت القوة كوسيلة بيد الإدارة السياسية لفرض سيطرتها. على عكس ذلك، كانت في المناطق الأخرى من العالم هوة بين الأرستقراطية والتجار، ضد المدن، ولم يكن للطبقة الوسطى مكان في آلية الحكم (ص 583).

تعاظمت التجارة طويلة المدى بالمواد الثقيلة، في القرن السابع عشر، واعتمدت على الإنتاج الشعبي؛ شارك الجميع، بما فيهم العامة، في النظام السياسي وفي آلية السوق. عقلنا حساب المصلحة، وأدخلوا حساب الربح والخسارة في الزراعة، وصارت الأرض سلعة تجارية، وتحايلوا على منع الربا (ص 584). خضعت الزراعة لآلية السوق لا للتقاليد. لم يعد هناك شيء مؤكد في حياة الأغنياء والفقراة، إذ خضع كل شيء لتقلبات السوق، وصار التقدم التقني هو وحده الذي يقود إلى الربح. أدى تدفق الذهب والفضة من أميركا الجنوبية إلى ثورة في الأسعار وإلى صعود الطبقة الوسطى وإلى تغيير في القيم. وساد العنف والبؤس في الجدل الديني والسياسي. مزقت حركتا الإصلاح الديني الرابطة بين الهيلينية والعناصر المسيحية - اليهودية فيتراث أوروبا الثقافي. وتلاشت التسوية بين العالم والآخرة، وبين العقل والإيمان، وبين اللذة الجسدية واللذة الروحية. وإذا كانت البروتستانتية قد هدفت إلى إرضاء للعقل الإنساني أمام الله، إلا أنها أطلقت بعد جيلين الممارسة المنضبطة لنشاطات الأعمال (business) من أجل كسب المال كما لم يحدث من قبل (ص 585).

زال الطموح من أجل فرض الحقيقة الكلية عن طريق القوة، ولم تعد هذه مسألة تعنى الدولة أو رجال السياسة، لأن النتائج كانت تأتي عكس طموحات المشاركين في الجدل أو في الصراع. وما عاد ممكناً تعريف الحقيقة. وكان من أهم إنجازات ذاك العصر تزعزع رؤية العالم التي كانت تحكم بأفعال البشر (ص 588). ربما كان ذلك سبباً في محاولة لوثر والإصلاحيين الآخرين إنشاء علاقة مباشرة مع الله بالعودة إلى النص وضرب احتكار رجال الدين الرسميين للدين، ومن أجل تنوع المذاهب حيث يمكن للجميع أن يكونوا رجال دين (ص 590).

في حروب الثلاثين عاماً الدينية كانت هناك تحالفات بين أعداء دينيين على أساس المصلحة لا على أساس الدين؛ فقد خدم كل من البروتستان والكاثوليك العلمة، على الصعيد السياسي، إذ ساهموا في تقدم السلطة المدنية على حساب

البابوية والإمبراطورية (ص 591). أما على الصعيد الثقافي، فقد سار التقدم على خطين متناقضين، إذ اتجه الأدب والفن للتمايز في مدارس ومذاهب قومية، بينما كان للعلم والتكنولوجيا طابع أوروبي جامع واستقلالية ذهنية. وحلت اللغات العالمية مكان اللاتينية في القرنين السادس عشر والسابع عشر (ص 592). كان اختبار النظريات على أساس قياسات دقيقة هو مفتاح التقدم العلمي الذي لم يعد يحترم العلم الموروث. ومن ناحية أخرى، جرى إحياء الأفلاطونية - الفيشاغورية ضد فلسفة أرسطو؛ واعتمدوا على الملاحظة والقياس وعلى أدوات جديدة، وانتصرت فكرة نسبية الحقيقة. ومع تحطم النظام القروسطي وولادة العلوم الدقيقة والأداب العلمانية وفن الباروك والفلسفة العقلانية، بذرت بدورها الفكرة العلمانية التي أصبحت ميزة أوروبا في تاريخها اللاحق (ص 598).

تساعد الازدواجية في تراث أوروبا على تفسير التنوع في ردود الفعل في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وقد كان لدى الصين ازدواجية الكونفوشيوسية والبوذية، ولدى الإسلام ازدواجية الهيلينية والشرقية. لكن كلاً منها كانت ازدواجية محصورة لدى نخب ضيقة ومتفرقة إلى العاطفة والعنف، إلى التطرف والطيش، كما في المغامرة الأوروبية. وارتكتزت ازدواجية الصين والشرق الأوسط على قاعدة الاستقطاب بين أسياد الأرض وال فلاحين، كما كانت ذات أنماط مستقرة معلبة تقيدت فيها جماهير المدن، مما يفسر الفرق. لكن هذه التفسيرات لا تلغي حقيقة أن هناك أفراداً عباقرة صنعوا أوروبا وحضارتها التي صارت حضارة العالم (ص 599).

### ج - التوسع الأوروبي في أميركا وروسيا 1500 – 1650

كان التفاعل بين الأوروبيين والهنود في القرنين السادس عشر والسابع عشر وحيد الجانب، ولم يجد الإسبان ما يعجبهم في حضارة الأميركيين سوى القليل: الذرة والبطاطا والتبغ (ص 599). ومن جهة أخرى، خضع الهنود الأميركيون خصوصاً تماماً لأفكار الإسبان وأوبيتهم وقوتهم؛ ودجعوا بسرعة إذ انطبعوا بال المسيحية في البيرو والمكسيك خلال جيل واحد. وقد لعب الإرساليون اليسوعيون والفرنسيسكان والدومنيكيون دوراً كبيراً في ذلك. وكان الانقطاع

في ثقافة السكان الأصليين شبه تام (ص 600).

حدث تناقص سكاني هائل، في القرن السادس عشر، في المكسيك من 11 مليون في 1519 إلى 2 مليون في 1600 إلى مليون واحد حوالي العام 1650. وعلى أطراف الإمبراطورية الإسبانية كان التمزق أقل فجائية وكارثية (تشيلي، مثلاً). وفي سهول أمريكا الشمالية لم يسيطر الإسبان. ونشأت مجتمعات جديدة مختلطة في المستعمرات البرتغالية والإسبانية، من الأوروبيين والزنوج والهنود. ولا يشمل ذلك الأرجنتين وأميركا الشمالية حيث كان الهنود شديدي التخلف وقليلي العدد، مما استطاعوا المساهمة بحجم كبير في الأيدي العاملة؛ كما أن إقامة مزارع تعتمد على العبيد كانت أمراً غير ممكن؛ لذلك جرى الاعتماد على المستوطنين البيض أنفسهم. وبينما اعتمد الإسبان والفرنسيون على سياسة جعلت المستعمرات تابعة مباشرة لحكومات الوطن الأم وتعليماتها، سمح الإنجليز للمستعمرات بأن تحكم نفسها (ص 604).

لم تكن الاكتشافات الأوروبية في القرنين السادس عشر والسابع عشر محصورةً بما وراء البحار. بل توغل الأوروبيون من إيطاليا وإنجلترا وألمانيا وهولندا لاكتشاف روسيا (ص 604). لكن روسيا لم تكن ضعيفةً في مواجهة أوروبا الغربية كالهنود الأميركيين؛ وما انهارت المؤسسات الروسية أمام الاحتلال البولوني في 1610، بل استطاعت أن تلملم نفسها لتتصبح طرفاً في أوروبا لاحقاً. وفي البداية رحب حكام روسيا بقدوم التجار الأوروبيين ومعهم، وواجهوا ممانعة محلية. حاولوا فرض الأساليب الأوروبية بالقوة رغم المقاومة التي لقوها. واشتد الخلاف أيضاً حول دور الكنيسة وهل يجوز لها أن تمتلك الأرض أم يفترض بها العيش في فقر تشبهها بالمسيح (ص 606). كما أن الخلاف حول إصلاح الأخطاء في الليتورجيا بين الإصلاحيين والمحافظين لم يكن أقل حدة. وتفاقم خلاف آخر مختلط بالخوف من اليهوديين الذين كانوا دعاةً ضد البروتستانتية والأرثوذكسية، خاصة عندما نشأت كنيسة موحدة في أوكرانيا. إن المقاومة العنيفة للإصلاح قمعتها القبرصية والكنيسة الرسمية؛ وانتهى الأمر إلى الانشقاق وإلى ممارسة المحافظين لنشاشتهم تحت الأرض.

وحاول القيصر إيفان الرابع (الرهيب) تحصين الدولة أيضاً في وجه الأخطار الخارجية بتنفيذ برنامج واسع منذ العام 1654 مصحوب بالعنف ضد امتيازات الأرستقراطية لاعطاء الأرض لمن لهم قدرة قتالية ولبناء جيش وإدارة قادرتين على رد الأعداء الخارجيين. نجح في الشرق بالتغلب على خان قازان وعلى خان أستراخان، لكنه خسر في الغرب ضد بولونيا والسويد (ص 608).

حاول حكام روسيا في القرن السادس عشر إرساء قواعد الحكم المحلي والبرلمان للتشبه بفرنسا حيث التوازن الدقيق بين الناج والأرستقراطية والبورجوازية الداعمة للحكم المطلق. لكن الشبه بفرنسا كان شكلياً فقط. فقد تصاعد نجم الحكم المطلق على حساب اللجان المحلية والبرلمان. لقد حاول الروس، خاصة في أوائل أيام سلالة رومانوف، عزل الأجانب واستبعاد جميع التأثيرات الخارجية، لكن الفضول والمصلحة قادا إلى الترحيب خاصة أن انفتاح الحدود جعل منع التأثيرات الخارجية صعباً. إن علاقة روسيا الملتبسة بالغرب جعلتها تبدو دولة شبه غربية أمام المناطق الشرقية (ص 611).

#### د - التحول في توازن الإيكومين بين 1500 و1700 العالم الإسلامي

في أواخر القرن الخامس عشر كان مقاتلو السهوب، المدعومون بالتجار والصوفية وإرساليات العلماء، يحيطون بمركز الأرثوذكسيّة القديم، ويتوغلون في أعماق الهند، ويقيمون جماعات إسلامية ذات ثقافة إسلامية في أقاليم الصين الغربية. لقد استمر التحول إلى الإسلام رغم الضعف العسكري الذي أصابه؛ فالأوزبك البدو (1507 – 1515) يغزون عبر جيحون آتين من سهوب أواسط آسيا. وفلول الترك من ورثة تيمورلنك ينسحبون إلى الهند ويزيلون آخر ممالك الهندوس الفيجياناغار Vijayanagar؛ وفي جاوه ينشئ المسلمين تحالف مدن ساحلية للقضاء على الملكية الهندوسية في الداخل (ص 611). وفي أفريقيا الغربية يتكرر المشهد نفسه على يد تجار ودعاة دينيين مدعومين من دول إسلامية في تمبكتو وبورنو والمغرب؛ هذا بينما يسيطر العثمانيون سيطرتهم في مناطق مختلفة في هنغاريا ومحيط البحر الأسود، وصولاً إلى

حصار فيينا الثاني عام 1683 (ص 612). لكن المسلمين، رغم استمرارية العهود السابقة عانوا من أمور ثلاثة: أولها، الصليبية الإيبريرية ضد الإسلام في المتوسط والأطلسي والهندي؛ وثانيها، تثبيت وتوحيد مملكة موسكو في مواجهة خانات سهوب غربي آسيا الذين ما عادوا قادرين على المواجهة؛ وثالثها، الشقاق العنيف بين الإسلام السنوي والشيعي. وكان هذا العامل الأخير أهم العوامل الثلاثة لأن المسلمين في أواخر القرن السادس عشر استطاعوا استيعاب المد الإيبريري (ص 613).

### **الصلبية الإيبريرية ورد فعل المسلمين**

كان هاجس البرتغاليين في ترحالهم حول أفريقيا الالتفاف حول المسلمين والاتصال مع المملكة المسيحية المتخلّلة Prester John (ص 613). وقد نظم العثمانيون ثلاث حملات ضد البرتغاليين في القرن السادس عشر في المحيط الهندي رغم العقبات الجغرافية ورغم الصعوبات الناتجة عن اضطرارهم لاستيراد الخشب من أجل بناء السفن. وقد استطاعت القوى المحلية في النصف الثاني من القرن السادس عشر استيعاب الخطر البرتغالي في المحيط الهندي مما اضطر البرتغاليين إلى استقبال السفن الإسلامية في المرافئ التي كانت بحوزتهم. وكانت الامتيازات الأجنبية التي أعطيت لفرنسا في 1536، ولبريطانيا في 1580، إضافة إلى استقبال الهولنديين في موانئ شرق المتوسط، وسيلةً لموازنة ثقل البرتغاليين والإسبان (ص 614).

أنشأ الأوروبيون شركات إنجليزية وهولندية وفرنسية من أجل صادرات الهند (الخشب والقطن)، ومن أجل صادرات الصين (حرير، شاي، بورسلان)، ومن أجل القهوة العربية والسجاد الفارسي. وتتدفق الذهب والفضة باتجاه الشرق، لا في الاتجاه الآخر، لأن الأوروبيين لم يكن لديهم ما يصدرونه إلى الشرق، سوى بعض المواد الأولية. ولم يتوقف تدفق الذهب والفضة باتجاه الشرق حتى تكون تدريجياً لدى الشرقيين ذوق يستسيغ المنتوجات الأوروبية. وكان الأوروبيون يتاجرون بين آسيا القصوى وأفريقيا والهنـد، قبل أن يتقدّموا لمستوى آخر بحيث صار الهولنديون قادرين على عقلنة الزراعة في جاوه، وصار

البريطانيون قادرين على تعين الصناعة التي سوف تنشأ في الهند بتحويل منهم (ص 615).

وكان التغلغل الاقتصادي الأوروبي في الدولة العثمانية أكثر بطلاً. فقد بقيت التجارة، حتى عام 1700 بيد التجار المحليين. والأمر المؤكد أنه في عام 1700 لم يكن لدى المسلمين سبب يدعوهم للخوف والذعر أو للتخلّي عن شعورهم بالتفوق (ص 616).

### صعود روسيا وأثاره على بلاد المسلمين

عندما أعلن إيفان الثالث استقلاله السياسي عن مملكة القبيلة الذهبية في عام 1480، كان التر قد ضعفوا بسبب منازعاتهم الداخلية وصاروا أعجز في مواجهة التحدي. وكانت الجمهوريات التي أقامها القوزاق في المناطق الحدودية، لمنافسة موسكو ووارسو، قد اختارت الانضواء تحت راية الروس. وقد ساهم تقدم الروس من جهة واللامائين التيتبيين في وسط شرقي السهوب في وقف توسيع الإسلام. وقد خسر المسلمون أول موقع لهم، خسارة جدية، في وقت كانوا يتقدموه في المناطق الأخرى. دخل اللامائيون التيتبيون موقع لهم، وكان ذلك بداية انحدارهم (ص 618).

### النزاع السنّي - الشيعي وأثره على المسلمين

أدى ظهور الصفویین في إیران (1499) إلى زعزعة توازن تاريخي سياسي وديني. أحرزوا انتصارات، وسيطروا على مجلـم الـھـضـبـةـ الإـیرـانـیـةـ، واعتمدوا على جنـدـ مـتـحـمـسـ، واضطهدوا أهلـ السـنـةـ. وأدت انتصاراتـهمـ إلىـ خـروـجـ الشـیـعـةـ منـ التـقـیـةـ فـیـ الأـقـطـارـ الـإـسـلـامـیـةـ الـأـخـرـیـ. فـانـدـلـعـتـ اـنـقـاضـةـ شـعـبـیـةـ عـارـمـةـ فـیـ شـرـقـ الـأـنـاضـولـ، مـاـ اـضـطـرـرـ السـلـطـانـ سـلـیـمـ إـلـىـ مـوـاجـهـةـ الصـفـوـیـینـ فـیـ إـیرـانـ؛ وـانـتـصـرـ عـلـیـهـمـ فـیـ مـعـرـکـةـ جـالـدـیرـانـ عـامـ 1514ـ وـاحـتـلـ تـبـرـیـزـ عـاصـمـتـهـمـ. فـقـدـ كـانـتـ إـیرـانـ فـیـ الـقـرـنـ السـادـسـ عـشـرـ عـنـصـرـ إـثـارـةـ لـلـقـلـاـقـلـ فـیـ الـعـالـمـ الـإـسـلـامـیـ دـفـاعـاـ عـنـ الشـیـعـةـ. وـكـانـتـ فـیـ حـالـةـ عـدـاءـ دائـمـةـ مـعـ الـعـثـمـانـیـینـ (صـ 619ـ).

في النصف الأول من القرن السابع عشر، أدار العثمانيون آل هابسبورج

ظهورهم بعضهم لبعض كي يحارب كل منهما الهرطقة في داره (البروتستانت والشيعة)؛ ولم يعقد العثمانيون صلحًا دائمًا مع الصفوين إلا في عام 1639. وعندما فشل السلطان سليم في إزاحة الصفوين من الحكم في 1514، انصرف إلى محاربة المماليك في 1516 – 1517، وانتصر عليهم بفضل المدفعية ثم انصرف غرباً إلى شمال أفريقيا حيث واجه الإسبان والحكم السعدي في المغرب (حيث كان الأشراف السعديون قد أنشأوا دولة في عام 1511). (ص 621).

تبني الأوزبك في وسط آسيا الإسلام السنوي في مواجهة الصفوين. وفي الهند، أنشأ بابر مملكة المغول وتبني هو وابنه من بعده المذهب الشيعي من أجل الحصول على دعم الصفوين. وعندما حكم أكبر (1556 – 1605) أعلن نفسه سلطة دينية مستقلة لكن خلفه جاهنجير الذي ما كان متهمًا بالمسائل الدينية سلك خطأً مرضيًّا لعلماء المسلمين الستة (ص 622). وفي عهد أونجزيز (1659 – 1707) جرى تبني خط سنوي متشدد، كما تمت إزاحة الحكام الشيعة في جنوب الهند. وفي عهده تحقق أوسع مدى للإمبراطورية المغولية في الهند (ص 623).

كانت إيران وأذربيجان وال العراق المناطق الأكثر تأثيراً بالتشيع. وفي الوقت الذي كانت فيه صوفية والسنة تُضطهدان، كانت البروتستانتية في أوروبا تُضطهد أصحاب الأديرة في أوروبا (ص 623).

استخدم الصفويون جيشاً ضخماً من الأرمن والجورجيين الذين اعتنقوا الإسلام مكان الجيش القبلي، بدءاً من أيام الشاه عباس، وذلك على غرار جيش الإنكشارية لدى العثمانيين. ولم يكن العثمانيون مضطرين لممارسة الاضطهاد الديني كالصفوين، فقد كانت الصوفية غير الأرثوذكسية قد تغلغلت في نسيج المجتمع الإسلامي عامه. لكن كلاً من العثمانيين والصوفيين تبني المذهب الواحد. وفي الهند انتشرت الصوفية كما نشأت مذاهب توفيقية بين الإسلام والهندوسية؛ ولم يستطع أباطرة المغول استيعاب الحركات الدينية الشعبية ولا إسلام الجماهير الفقيرة (ص 628).

لقد كان للتحولات الدينية والسياسية المترتبة على الثورة الشيعية الصفوية أثر بعيد المدى في الثقافة الإسلامية العليا. تراجع الشعر والأدب الفارسيان بسبب الموقف غير المتسامح. وازدهرت الآداب التركية والعمارة والحرف التي تصنّع مواد الترف. ومن يتأمل الفنون الإسلامية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، لا يمكن أن يخمن أن حضارة المسلمين وثقافتهم كانتا في تراجع في بداية القرن السادس عشر. فقد كان العالم الإسلامي يزدهر بالمقارنة مع غيره من البلدان غير الأوروبية (ص 629).

لا يمكن التقليل من أهمية الصراع السنوي الشيعي في تسبب الجمود، إذ إنه قاد إلى التمسك بمفاهيم وصيغ قديمة للحقيقة، مما جعل المسلمين يهملون العناصر التي أدت إلى نهوض أوروبا. وساهم التركيب الاجتماعي في الجمود أيضاً؛ إذ كان للدول الإسلامية قاعدة ضيقة من العسكري والإداريين، كما أخضع سكان المدن للموظفين وأسياد الأرض (ص 632).

في القرنين السابع عشر والثامن عشر كان الصراع الشيعي السنوي هو الأمر المركزي في حين كان الصراع الديني في أوروبا أمراً ثانوياً (ص 633).

#### **رابعاً: الطوائف الدينية الخاضعة في العالم الإسلامي الهند والهندوسية وجنوب غربي آسيا البوذية**

رغم الخسوف السياسي للهندوسية في القرن السادس عشر بقي معظم الهند على دين أجدادهم، وشكل المسلمون طبقة مغلقة (caste) جديدة. وقد ضمت الإدارة المغولية أعداداً من الهنود للعمل في جمع الضرائب، كما أن جيشهم ضم راجوتا هندوسياً؛ فالإسلام لم يتدخل جدياً في وجه استمرار الحياة الهندوسية. وقد رأينا في السابق محاولات توفيقية مثل السيخ (ص 633).

وظهرت نظاراتٌ في الحياة الأدبية الهندوسية لتظهر تعبيرات شعرية عن حركات شعبية دينية ول يؤسس شرعة مذاهب هندوسية، على يد منشدين مثل نشيتانايا وتولسي داس وسورناس. لم تهتم المذاهب الشعبية كثيراً بالمظاهر البراجماتية، لكن التقليد السنسكريتي القديم، حول الإله فيشنو حافظ على

حيويته واستمراريته. وساهم هذا التطور للهندوسية الشعبية في الصمود في وجه انتقادات المسلمين وحافظ على بقاء الهندوسية. لكن الهندوسية فيما وراء البحار لم تشهد تطوراً مماثلاً فاستوعب الإسلام أتباعها (ص 636).

### **المسيحيون في ظل الحكم الإسلامي**

بقيت جماعات مسيحية معزولة في بلاد المركز الإسلامي وذلك في الجبال أو في المدن، في ممارسة مهن خاصة بهم. وكان لهذه الجماعات دور ثانوي في المجتمع العثماني. أما في أرمينية وجورجيا والبلقان فقد كانت الجماعات المسيحية أكثر كثافة. وكان لزعماهم دور مع حكومات أوروبا. وفي القرن السابع عشر صارت الزراعة التجارية في البلقان مهمة (قطن، تبغ، قمح، ذرة). وفي عام 1638 ألغى نظام الدفسير ما وكان ذلك خسارة للمسيحيين. وعلى العموم كان مسيحيو الشرق في حالة ثقافية شديدة التدني في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ولم يصلهم الإصلاح الديني الأوروبي. وكان زعماؤهم الدينيون وتجارهم ومصرفيوهم وجامعو الضرائب ينافسون الأتراك في استغلالهم واضطهادهم (ص 638).

### **اليهود في أراضي الإسلام**

كان القرن السادس عشر بالنسبة لهم عصرًا ذهبياً. لكنهم تراجعوا في القرن السابع عشر مع تراجع الاقتصاد العثماني. وكانت الصعوبات الاقتصادية سبباً لظهور حركات رسولية مثل سباتاي زفي الذي ادعى أنه المسيح المنتظر. وقد حل الأرثوذكس مكانهم في الصيرفة والترجمة (ص 639).

### **خامساً: الشرق الأقصى**

#### **الصين**

لم يكترث الصينيون في بداية القرن السادس عشر للبراءة الأوروبيين الآتين من البحار الجنوبية. وفي عام 1700 كانت الصين ما تزال قوية ومزدهرة (ص 640).

أدى الغزو المنشوري في عام 1644 إلى إحلال سلالة تشينغ مكان المينغ، وفي هذا القرن ظهرت روسيا كعدو جديد في الغرب. وحتى عام 1759 كانت

الصين تستصغر شأن الأوروبيين الآتين عبر البحار وتركت على الدفاع في البر غريباً. وكان منع اليابانيين رعاياهم من مغادرة البلاد ومن القرصنة ومن صناعة السفن قد أراح الصينيين من هم دفاعي. في هذه الفترة أدخلت نباتات أميركية جديدة إلى الصين، كالبطاطا الحلوة، والذرة والفستق والتبغ والبطاطا الإيرلنديه وغيرها (ص 643). وشهد القرن السابع عشر نمواً سكانياً كبيراً، إذ أصبح عدد سكان الصين 150 مليوناً في 1650م، وهذا يساوي ضعفي عدد سكان الصين أيام المينغ، في 1638. وصاحب ذلك نمو صناعي وتجاري. وكانت هنا تأثيرات ثقافية غربية، إلا أنها بقيت هامشية لا تحرك المجتمع الصيني، إذ كان الهم الأكبر هو الحفاظ على تراث شعب هان العظيم (ص 645). ومن المعلوم أن الرجوع إلى القديم لتصحيح الحاضر أمر مأثور لدى سائر الشعوب.

### البابان

كان تاريخ اليابان في هذه الفترة حروباً أهلية في الداخل وقرصنة في الخارج. وتحقق سلم أهلي في 1648. وحدث نهوض اقتصادي، وتسارع نمو المدن، وكان للبلاط دور ثقافي أساسى. وكان وصول البرتغاليين واليسوعيين إلى اليابان في منتصف القرن السادس عشر. وكان استقبال اليسوعيين ودياً، حتى أصبحت العمادة موضة. وبعد البرتغاليين وصل الهولنديون إلى مياه اليابان في 1609، وجرى اضطهاد اليسوعيين؛ وتراجع سادة الأرض عن معهوديتهم. وتراجعت التجارة الخارجية إلى الحد الأدنى (ص 648). وتبنت الدولة الكونفوشيوسية الجديدة. وتراجعت البوذية وأصابها شلل بعد حروب القرن السادس عشر. وصار دين الشينتو القديم راية للمعترضين. وسادت في اليابان ازدواجية ثقافية بعد طرد الأوروبيين وقمع المسيحيين، إذ كانت الثقافة العليا كونفوشيوسية ذات نمط صيني في مواجهة ثقافية مدينية غير متدينة ومتتجدة ذات زخم.

### التبت، مونغوليا وسهوب أواسط آسيا

انتشرت الكنيسة «الصفراء» اللامائية من التبت إلى مونغوليا. وحاولت الصين إخضاع حلف قبائل الكالموك، لكن وباء الجدري حقق ما لم يستطعه الصينيون.

عندما خضع اللامائيون للصين (ص 650).

### سادساً: أفريقيا

تعرفت أفريقيا جنوب الصحراء قبل عام 1500 على الحضارة من خلال المسلمين. تغيرت الحال بعد طوف البرتغاليين حول أفريقيا. لكن تغلغل الأوروبيين في أفريقيا بقي سطحياً حتى عام 1700. وكان للمسيحيين كما للمسلمين دور في تجارة العبيد (ص 650).

وقد شهدت أفريقيا تطورين هامين في القرن السادس عشر؛ أولهما: توسيع تربية الحيوانات والحياة البدوية في مناطق لم تكن فيها من قبل، وحلّت مكان جماعات الصيد في أمكنة عديدة. وكان ذلك تقدماً تقنياً. وثانيهما: إدخال الكثير من النباتات الأميركيّة إلى أفريقيا مثل الذرة والمانيوك والبطاطا الحلوة والفستق والكوسى والكافور. وقد ساعد على نموها المناخ المشابه لأميركا الوسطى.

وكان مغزى انتشار الحياة البدوية وتربية القطعان وزراعة النباتات الجديدة وظهور ممالك على مساحات واسعة هو دخول أفريقيا في الإيكومين. وكانت حلقة الوصل هي تجارة العبيد من أجل مزارع أميركا ومناجمها.

### استنتاجات

بين عامي 1500 و1700 توسع الإيكومين الأميركي ليضم أجزاء كبرى من الأميركيتين وأفريقيا جنوب الصحراء، وجمع مناطق آسيا الشمالية؛ وبدأت أوروبا تشق طريقها لتسبيق منافسيها وتصبح أكثر المناطق قدرةً على التوسيع الجغرافي والإبداع الثقافي. وحتى عام 1700 لم تكن الصين أو الهند أو العالم الإسلامي قد تأثرت بهذا الأمر. وفي مناطق العالم الأخرى كانت آثار التوسيع الأوروبي دراماتيكية. ولم يبق في عام 1700 خارج الإيكومين سوى أستراليا والأمازون وشمال غربي أميركا. ومنذ عام 1500 كان هناك سباقٌ بين قدرة الغرب على التحرش والتدخل والهيمنة وبين المحاولات اليائسة من الآخرين لإبعاد الغرب وتأثيراته (ص 652).

## سابعاً: تحطم التوازن العالمي 1700 - 1850

مقدمة

تجاوز الغرب الآخرين حوالي 1700، لكن التوازن القديم بين الحضارات الأربع، الشرق الأوسط والصين والهند وأوروبا ما انها إلا في أواسط القرن التاسع عشر. وكان ذلك في أعقاب ثورتين، ديمقراطية وصناعية، أدتا إلى تحول كبير يشبه التحول الذي رافق الإصلاح الديني وعصر النهضة (ص 652).

### النظام القديم في أوروبا 1650 - 1789

صار الدين في القرن السابع عشر شأنًا خاصاً. فالدولة تعنى بشؤون المال والسلطة. والتناقضات في المبادئ خفت من حدتها وهداتها سلسلة تسويات. ونشأت مؤسسات جديدة أو متتجدة لإحداث توازن في التناقضات بين المصالح الحادة التناقض. وكان التوسيع الأوروبي بمثابة صمام أمان. وتراجع التفتيش عن الحقيقة في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وكان من أهم التنظيمات الجديدة الشركات المساهمة والجيوش البحرية. وإذا كان التوسيع الأوروبي قد أدى إلى استقرار داخلي، فإن العكس أيضًا صحيح. وصارت أوروبا هي الغرب، وكانت في تطورها لا تشبهها منطقة أخرى في أي مراحل التاريخ سوى عراق ما بين النهرين في فترة 1500 - 1550 ق.م. ومن الممكن تقسيم الصعود الأوروبي إلى ثلاثة مراحل: (1) التوسيع (2) تكثيف النفوذ في روسيا وأميركا (3) تسويات النظام القديم في المركز (ص 656).

#### 1 - التوسيع الأوروبي في أراضٍ جديدة

اعتمد التوسيع الأوروبي على عدة أنواع من استغلال الأراضي والشعوب التي كان لها تماส مع الأوروبيين؛ ومن الممكن اختصارها إلى ثلاثة أنواع: 1) التغلغل في مناطق ذات مواد جاهزة ضئيلة القيمة بالنسبة للأوروبيين؛ 2) إعادة تنظيم اقتصاديات محلية لانتاج سلع مطلوبة في مختلف أنحاء العالم (خاصة في جزر الهند الغربية والشرقية)، وذلك في مناطق مدارية أو شبه مدارية كان فيها عمل العبيد هو القاعدة؛ 3) مستوطنات أوروبية في الأميركيتين وسهوب الأوراسيا، في المناطق ذات المناخ المعتمد (ص 656). وكانت الاكتشافات

والتجارة الدولية والمنافسات القومية موجهة من أجل مواد مثل الفرو (في كندا و西伯يريا) والذهب في البرازيل. وكانت المنافسة تتم بين الدول حول الاكتشافات والتجارة (ص 658).

وقد تم استخدام العبيد بكثافة في مزارع جزر الهند الغربية والبرازيل والمنطقة الجنوبية من أميركا الشمالية، لإنتاج مواد أهمها السكر، أما في جزر الهند الشرقية فكان الاعتماد على العمل الإجباري والسخرة، وذلك كله من ضمن عملية واعية لتحويل اقتصاديات هذه المناطق وتكيفها مع متطلبات التجارة الأوروبية (ص 659). وقد تتنوع التنظيمات الاجتماعية للمستوطنات الأوروبية في مختلف أنحاء المعمورة بين العبودية الصارمة في جزر الهند الغربية والمساوية الفجة في شمال شرق الولايات المتحدة (إنجلترا الجديدة). وإذا كانت الحضارات تنهض منذ بداية التاريخ على أساس خضوع عمل فريق من الناس لإرادة فريق آخر، فإن للقمع مساوئه. وقد برهنت المناطق المتقدمة في المستوطنات الأوروبية أن الحرية أكثر مدعاه للتقدم على المدى الطويل (ص 662). ومن الناحية الزمنية تم انتشار وتطور معظم الجماعات الاستيطانية الأوروبية عبر البحار في نهاية القرن الثامن عشر، وذلك فيما عدا نيوزيلندا وحدها (ص 663).

## 2 - تأثُّف (Acculturation) أطراف أوروبا القديمة (روسيا وأميركا)

توسعت أوروبا بعد 1648 ليس باحتلال مناطق جديدة وحسب، بل بنشر الحضارة ذات النموذج الأوروبي في أطراف مناطق نفوذها. ومع حلول العام 1789 أدخلت هذه العملية أجزاء كبيرة من روسيا ومن «العالم الجديد» إلى العضوية الكاملة فيما أصبح يسمى الحضارة الغربية، (ص 664). وقد تمت هذه العملية في المنطقتين بطرقتين مختلفتين، إذ لم تكن هناك مانعة لهذا الانخراط في أميركا كما في روسيا. فكان الانخراط تلقائياً في أميركا، أما في روسيا فقد تطلب الأمر تدخل الدولة. وصارت الأولى ليبرالية كاملة، بينما بقيت الثانية استبداداً كاملاً.

ورغم تراجع هيمنة إسبانيا بين الدول الأوروبية، الذي عَبَرَ عنه إعادة تأكيد استقلال البرتغال وصلح البريئي لغير صالح إسبانيا عام 1659، إلا أن الإمبراطورية الإسبانية حافظت على نفسها حتى عام 1714 في أوروبا، وحتى القرن التاسع عشر في أميركا. وكان الفضل لمؤسسات الكنيسة والبيروقراطية المركزية، اللتين يعين الناج أعضاءهما، في الحفاظ على أميركا الإسبانية ضمن إطار محافظة حتى الرابع الثالث من القرن التاسع عشر. وبقي السكان خاضعين رغم المتغيرات. وتزايد السكان بعد 1650 بوتيرة بطيئة، ثم متسرعة في أواخر القرن الثامن عشر، وذلك بفضل اكتساب المناعة ضد أمراض العالم القديم. وتوسعت التجارة خاصة بعد السماح للممتلكات الإسبانية في أميركا بالمتاجرة فيما بينها بعد 1774. ونمّت المدن والطبقة الوسطى وظهرت بدايات ازدهار ثقافي. وانتشرت الملكيات الكبرى والعمل القسري عن طريق الرق والرهن لقاء الدين (ص 666). وكانت أكثر من  $\frac{5}{4}$  الأرض في وسط إسبانيا الجديدة ملکاً للكنيسة أو رهناً لها (ص 667).

وفيما يتعلق بالبرازيل وأميركا الشمالية، كانت مستعمرات إنجلترا وفرنسا، حتى أواخر القرن الثامن عشر، متخلفةً وراء المستعمرات الإسبانية، كما كانت البرازيل البرتغالية والمستعمرات البريطانية في أميركا الشمالية، تخضع لنظام لا مركزي بسبب المتابع المحلي لمحكمات بلدان المركز (الحرب الأهلية في إنجلترا 1612 - 1649، وقدرة البرتغال ضد إسبانيا 40 - 1659). واعتمد اقتصاد المزارع الكبرى السائد في البرازيل وجنوبي أميركا الشمالية على عمل العبيد (ص 667). وشهدت المناطق تزايداً سكانياً، فقد بلغ عدد سكان الولايات المتحدة عام 1790 عندما أُجري أول إحصاء سكاني 4 ملايين نسمة، أي نصف سكان بريطانيا العظمى. وكان التزايد السكاني داخلياً بالإضافة إلى الهجرة. وفي الولايات المتحدة كانت الحركة الاجتماعية والحرية السياسية سمتين بارزتين. وساهم التنوّع الديني في تمييع الصلابة الدينية والتيلولوجية. وشكلت المؤسسات الجديدة في العالم الجديد تحدياً للنظام القديم في أوروبا (ص 670).

كذلك في روسيا، كان توحيد وتمتين حكومة روسيا الأتوقراطية الحديثة والعسكرية تحدياً لنظام أوروبا القديم. وكانت للدولة موارد بشرية كبرى مكرسة لخدمتها، بالمقارنة مع أوروبا المنقسمة على نفسها والمشتركة؛ وسيظهر تهديد روسيا للتعددية الأوروبية في زماننا. وحتى عام 1698، عندما عاد بطرس الأكبر، كانت روسيا تتبع سياسة آل رومانوف الأوائل في الحفاظ على تراثها كحامية للأرثوذكسية، إلا أن بطرس الأكبر فضل حضارة أوروبا الغربية (ص 670). وأدت إرادة شخص فرد، مثل إيفان الرهيب من قبل وستالين من بعد، إلى إحداث تحول كبير في روسيا. فقد فرض منع اللحى والقفطان، وتبسيط اللغة، ومنع عزل النساء، واستخدام روزنامة جولييان، وعاصمة جديدة في سان بطرسبورج، وإزاحة النساء عن أرضهم ووضعهم في الثكنات أو وراء المكاتب. وكان سعيه وراء القوة العسكرية يتطلب صناعة وبناء السفن وتحسين التعليم واهتمامًا بعلوم الرياضيات والفيزياء، باعتماد إجراءات قسرية (ص 671). فأعاد بذلك صنع روسيا، وأخضع الفتيان لتدريب يشبه الإنكارية، وخلق نخبة حاكمة متماسكة وقوية. وعندما سلمت كاترين الحكم (وكانت أميرة ألمانية)، على أثر انقلاب أطاح بزوجها بطرس الثاني في 1762، استطاعت المحافظة على بقائها في العرش بواسطة التقرب من الحرس الإمبراطوري والنبلاء وتلبية مطالبهم. ورغم التطور الاقتصادي الكبير بقي الفلاحون الأقنان في أدنى السلم الاجتماعي يزدادون فقرًا مما أدى إلى ثورات فلاجية قمعت بصرأواه. لذلك كان اتجاه الفلاحين نحو السكر والتدين المبالغ فيه. وتعايش في روسيا مجتمعان، أولهما أرستقراطي غربي، ذو نزعة فرنسية، وثانيهما فلاحي محلي. لقد أعلنت روسيا نفسها مجتمعاً أوروبياً في عهد بطرس الأكبر وحققت ذلك في عهد كاترين (ص 674).

### 3 - تسويات النظام القديم في أوروبا

خرجت فرنسا المتصرّ الأكبر من حرب الثلاثين عاماً (1648 – 1630) وبدت آثار ذلك في مظاهر العظماء في بلاط لويس الرابع عشر (1643 – 1715) وفي أدب فرنسا وثقافتها (ص 674).

كان ضرورياً صنع تسويات سياسية وثقافية في «النظام القديم لأوروبا» الذي يبني على الدولة الجغرافية (territorial) حيث زعمت كل دولة أن لا سيادة خارجية عليها وأن سيادتها على أرضها كاملة. لكن الواقع هو أنه كان على أكثر الملوك سلطة مطلقة أن يسايروا، ويتكيفوا مع مصالح وحقوق المدن والأقاليم والشركات المرخصة والنقابات وغيرها من مؤسسات المجتمع المدني؛ كما كان عليهم أن يخضعوا لنظام القوى الخارجية وتوازنه. وفي مقابل ازدراه الحقيقة المطلقة كان نكران إمكانية تحقق الحكم المطلق. وبقي مبدأ الحكم المطلق مسألة نظرية وحسب. وكما أن الحروب الدولية والdiplomaticية قيدت الحكم المطلق، فإن التوسع جعل استمرار التسويات والتوازنات ممكناً. وكان التوسيع خارجياً بالنسبة لفرنسا وإنجلترا، وعبر أوروبا الشرقية لروسيا والنمسا وبروسيا (ص 676).

وتمكنت الدول البعيدة عن المركز الأوروبي من تحقيق الانتصارات. فأخذت بريطانيا مستعمرات فرنسا في أميركا الشمالية وفي الهند بعد حرب السبع سنوات. وتوسعت النمسا في هنغاريا، لكن روسيا حلّت مكانها في التوسع بعد منتصف القرن الثامن عشر. لكن هذه الدول عانت مشاكل داخلية إذ نشبّت ثورات وانتفاضات في أميركا الشمالية وفي هنغاريا وفي روسيا نفسها.

كانت فرنسا في القرن السابع عشر عقلانية ذات بिरوقراطیة وإدارة مركزية وبيروقراطیة عسكرية، في مواجهة المجتمع المدني. وحافظت الكنيسة على موقعها في النمسا. وخسرت السويد وبولونيا موقعهما كقوتين عظميين (ص 676). وفي فترة 1688 - 1740 شهدت بروسيا ثورةً من فوق بريطانيا ثورةً من تحت، مما حدد التوازن الاجتماعي والدستوري اللاحق في كل منهما. ففي بروسيا بنى آل هوهنツولرن جيشاً قوياً لا يقف في طريقه شيء؛ وهو الذي ينسق قوى المجتمع الأخرى (المدن، النقابات، وغيرها..). وفي إنجلترا أدت ثورة 1688 - 1740 إلى تأكيد قوة البرلمان في وجه الناج والى تثبيت هيمنة الحكم الأوليغارشي. وكان البرلمان في إنجلترا هو الذي يقف وراء الفكرة القائلة أن الملاكين هم الذين لهم الحق في وضع القوانين وتحديد سياسات الدولة وإدارة الشؤون المحلية. وكانت حكومة إنجلترا، كما

في فرنسا، تستند إلى شبكة من المؤسسات والجماعات التي لها وزن ونزوع محافظان والتي حدّت من نفوذ البرلمان. لكن النظام البرلماني، في النهاية، هو الذي سمح بإجراء تعديلات وتسويات تستجيب لتوافق المصالح الأهلية والطبيقية. والأمر الأهم هو أنه لم يكن في إنجلترا تعارض بين النبلاء وممارسة التجارة وغيرها من الأعمال. أما في فرنسا وغيرها، فإن الناجحين في أعمالهم ومهنهم يتذمرون ليشتروا لقباً أو ليعملوا في الإدارة. لذلك كان التراكم لدى النبلاء البريطانيين أكثر من غيرهم (ص 678). إضافةً إلى ذلك ساهم التسامح الديني في تقدم إنجلترا الاقتصادي، بخلاف فرنسا التي خسرت الهوغونوت وربحتهم إنجلترا.

حققت معظم بلدان أوروبا تقدماً اقتصادياً وصار بإمكانها بناء جيوش بحرية وبحرية قائمة ودائمة وقوية والإتفاق عليها من واردات الضرائب. ونشأت البنوك المركزية والشركات المساهمة المرخصة، منذ بداية القرن السابع عشر (ص 682).

على الصعيد الذهني الثقافي، ساد التسامح الفكري وأقلعوا عن محاولة الانسجام المنطقى في المجتمع. وتراجع السعي من أجل الحقيقة الميتافيزيقية ومن أجل فرض الأرثوذكسية في الفكر والعمل، كما كان الأمر عليه في القرن السادس عشر. وأحرز الفكر العقلاني والعلوم الطبيعية في القرن السابع عشر تقدماً هائلاً على أيدي رجال من أمثال ديكارت وسبينوزا ونيوتن وهوبز ولبيترز الذين حاولوا تطبيق المنهج الرياضي على الشؤون الإنسانية والإلهية. ومهما كان الخلاف في التنتائج التي وصل إليها هؤلاء، إلا أنهم نجحوا في توسيع نطاق عمل القانون والانتظام وأخضعوا لهما مجالات كانت تخضع لسيادة الإرادة والعشوائية (ص 684). فقد بدا الآن أن ما سعى الفلاسفة للبرهنة عليه صار الآن أمراً متحققاً منه، وذلك هو أن قانوناً ذا بساطة ووضوح وجمال في دقتها الرياضية هو ما يحكم الكون. ويشمل هذا القانون الأجرام السماوية والأنظمة الشرعية. صار الله هو الرياضي الأكبر. فهو مهندس الكون الذي وضع له قوانين يتم اكتشافها. وكان منطقياً وبالتالي الاعتقاد أن الله خلق

القوانين للسلوك البشري. إن فكرة القانون أصعدت الأرض إلى السماء وأنزلت السماء إلى الأرض؛ وهذا مؤدي فيزياء نيوتن. ولم يعد ضرورياً الانتظار كي يجيء المسيح مرة أخرى لإنقاذ البشرية؛ فالعقل هو الذي ينقذها. هكذا انتصرت فكرتا التقدم والعلمنة (ص 684).

لكن معظم الأوروبيين بقوا مسيحيين. وبقي رجال أمثال باسكاد يشعرونن أمام فكرة الكون الميكانيكي الميت ذي الفضاء اللانهائي والقانون الطبيعي. ونشأت حركات دينية جديدة لمواجهة فضاء نيوتن الامتهاني الذي يغلف هذه الأرض الصغيرة، وذلك داخل البروتستانتية والكاثوليكية (Jansenism, Quietism, methodism, Quakers) والعجب في أوروبا القرن الثامن عشر أنها تعايشت فيها أفكار على هذه الدرجة من التناقض. وكان ذلك بداية عصر جديد من التعديلية الثقافية الحديثة، فقامت مؤسسات مثل الأكاديمية الفرنسية (1635) والجمعية الملكية في إنجلترا (1660) (ص 685).

أدى التسامح حال الاختلاف في القضايا الهامة إلى التنوع والخصوصية الفكرية. وكانت هناك تطبيقات جديدة في علمي الفيزياء والفلك، على يد لابلاس، وفي علمي النبات والحيوان؛ وكذلك اكتشافات هامة، على يد لافوازيبه في الكيمياء حول الاحتراق وتحولات الطاقة. وجرى الدمج بين العقلانية والتجريبية في دراسة التاريخ على يد جيوبون، وفي الميتافيزيقيا على يد لوك وهيوم وبيركللي. وساهم كانط في إنقاذ الفلسفة من شك هيوم. وسخر فولتير من الخرافات. واعتبر آدم سميث أن الإنتاج والتبادل الاقتصادي سوف يتخدان أكثر الأشكال جدواً إذا ترك المجال للطبيعة الإنسانية كي تعمل بوحى من المصلحة الذاتية العقلانية (ص 686). وانتشرت فكرة أن الله لم يعد يتدخل مباشرة في تسيير العالم، وقدرت هذه الفكرة إلى إعادة النظر في السلطة السياسية. فكانت فكرة العقد الاجتماعي، لتبرير الملكية المطلقة حيناً (هوبز) ولتبرير الثورة حيناً آخر (روسو). لكن الأكثريّة بقيت محافظة على أنماط الفكر والإيمان القديمة (ص 687).

وفي الفنون كانت هناك تسويات أيضاً، فقد تجسدت تعديلية المجتمع

الأوروبي والنظام القديم في مجال الفنون. ويدا، على السطح، الانسجام في الفن والأدب في ظل هيمنة الثقافة الفرنسية والكلاسيكية. لكن هذه بدأت تفقد موقعها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر لظهور الرومانسية في موقع الريادة. وفي ظل الرومانسية افسح المجال للتعبير العفوي عن المشاعر الوطنية والمحلية وعن العقريات الفردية. كذلك كان الأمر في الموسيقى والعمارة (ص 689).

#### 4 - تزعزع الاستقرار في النظام القديم :

تنامت الفقة بالنفس والإيمان بالقدم مع تلاشي ذكريات الحروب الدينية. وتصاعدت حدة عدم الصبر على المظالم وإنعدام المساواة في المجتمع الأوروبي. حتى الأرستقراطية الفرنسية، غير الراضية عن تهميشها السياسي، صارت تحضر ضد السلطة المطلقة للملك. لكن الأفكار وحدها ما كانت كافية، بل التكنولوجيا التي تسارع تفتحها في القرنين السابع عشر والثامن عشر هي التي لعبت الدور المباشر في إعادة صنع المجتمع. وهي أثرت في الحياة اليومية للناس تأثيراً تدريجياً دون خطة عامة شاملة (ص 690). ولم يستطع العلم النظري المجرد أن يقدم شيئاً لمجالات الصناعة قبل أن تتحقق الكيمياء الدقة التي افتقدتها حتى القرن الثامن عشر. ولم تكن النظرية ضرورية، بل كانت التجريبية كافية. وكانت لدى الإنجليز تقاليد تجريبية عبرت عن نفسها في إرادة إعادة النظر في الأساليب وأدوات العمل القديمة وفي الاستعداد لاستخدام أساليب وأدوات عمل جديدة. تسارع ذلك مع استخدام وسائل القياس والتسجيل والمقارنة والنشر في مجالات مهنية؛ مما أتاح إمكانية تراكم التجارب والمعرفة. ففي الزراعة كان لتأصيل الحيوانات والنباتات من أجل تأكيد ميزات معينة، كما استحدثت زراعات جديدة وأشكال أكثر فعالية لأدوات العمل والأسمدة والتشعيب؛ وكانت الريادة فيها لبريطانيا. أما المواصلات، فقد حدثت فيها تطورات هامة في الأقنية وبناء الطرقات لجميع الفصول، وبناء السفن وعربات الركاب الجديدة، وكانت الريادة فيها لفرنسا. وفي مجال المناجم، حلّت بريطانيا في مركز القيادة مكان ألمانيا، وصارت المناجم أكثر عمقاً واستخدمت فيها مصفحات ورافعات متقدمة تدار بواسطة محركات بخارية. وتطورت الصناعات المعدنية بحيث يتم تركيب أجزاء بعد أن يتم صنعها بدقة، ذلك أن

الاعتماد على العين والأذن صار أقل مما على القياسات الدقيقة. وكان النسيج أكثر المجالات إنجازاً للتقدم خاصة مع تطوير مكتنة الغزل والحياة (ص 692).

لقد نشأت الثورة الصناعية في رحم المجتمع القديم وتولدت من أفكاره. لكن الثورة الفرنسية، لا الثورة الصناعية، هي التي ساهمت المساهمة الكبرى في تشكيل المجتمع الذي سمح بانتصار التكنولوجيا (ص 693).

### الحمد الإسلامي 1700 – 1850

كان صلح كارلوفيتز، الذي سلم العثمانيون بموجبه المجر للنمسا، هو الحد الفاصل لانقلاب ميزان القوى بين العالم الإسلامي وأوروبا.

وكان ذلك بعد 16 عاماً فقط من حصار العثمانيين لفينينا الذي أحدث ذعراً في نفوس الأوروبيين وأذهلهم. وفي عام 1707 مات أورانجيزيب، إمبراطور المغول في الهند؛ وأدى ذلك إلى اضطراب واسع زج فيه الهنودس والسيخ والمسلمون والفرنسيون والإنجليز. وفي عام 1709 ثار الأفغان ضد الصفويين وأطاحوا بحكمهم وأحدثوا اضطراباً تنافس فيه الترك والأفغان والأوزبك والروس (ص 693).

أحدث الاضطراب السياسي في العالم الإسلامي تراجعاً اقتصادياً، لكن الآثار المدمرة لتغير أنماط التجارة وحلول المنسوجات والمصنوعات الأوروبية مكان الشرقية، لم تحدث إلا بعد 1830. فقد كان ميزان القوى حتى آخر القرن السابع عشر لصالح المسلمين. ولم تحدث عندهم قبل 1699 كوارث سياسية، إذ إنهم استطاعوا استيعاب جميع ما أصابهم، من قبل، بما في ذلك الغزو المغولي. لكن الحالة الجديدة هزت المسلمين وزعزعت ثقتهم بأنفسهم، ويدأوا يتساءلون عما إذا كان الله قد تخلى عنهم. وكانت ردة الفعل الأولى إصلاحية (الوهابية) أما ردة الفعل الثانية فكانت تقنية في المجال العسكري (ص 694). ولم يتسرّ للMuslimين قيام سلطة قوية تحدث إصلاحات جذرية. ولم ترض الإصلاحات العثمانية سوى عدد قليل من الناس. وبقي معظم المجتمع الإسلامي في القرن التاسع عشر في حالة غيبوبة وتجمد، وساد التقليد المحافظ المتمسك بنظام قديم عاجز عن الإيفاء بمتطلبات العصر (ص 695).

### - الإصلاح العثماني والثورات المسيحية

برزت الانقسامات داخل الامبراطورية العثمانية حيث كانت الأكثريّة مسيحية في الجزء الأوروبي وعربية في الجزء الآسيوي، بالإضافة إلى تمايزات بين الريف والمدينة، وال فلاحين عن أسياد الأرض، بينما احتل الرعاع جزءاً هاماً من المساحات الأوروبيّة والآسيوية. وكانت ردة الفعل تجاه الأوضاع المضطربة سلفيّة بين العرب (الوهابية) وتقديمية في البلقان (ذات نموذج أوروبي) (ص 696). ولم يكن مسيحيو الامبراطورية موحدين، وأدى ضرب الفنانين المتشددين بعد ثورة اليونان (21 - 1830) إلى إفساح المجال لنجاعة تركية قامت بإصلاحات كانت ذات أثر ضئيل. وثار عصاة محليون في مختلف أنحاء الامبراطورية، وكان أهمهم محمد علي في مصر. لكن مواجهة السلطة المركزية لهم سمحت بتصعيد التدخل الأجنبي في شؤون الامبراطورية الداخلية (ص 699).

### - ايران وتركستان

حل نادر شاه مكان السلالة الصفوية، بعد الإطاحة بها عام 1736، وحارب الترك وغزا الهند في (38 - 1739)، وأعلن التحول عن تفرد المذهب الشيعي في إيران معتبراً الشيعة مذهبًا خامساً. اغتيل نادر شاه عام 1747 وحل مكانه أحمد شاه دراني حتى عام 1773، لكن دولته انفرطت بعد مماته. لقد استمرت التقليد القتالية لدى الترك والإيرانيين، لكن الفرسان لم يعد بإمكانهم مقاومة جيوش منظمة على النمط الأوروبي أو الصيني. واستطاعت الصين من الشرق وروسيا من الشمال وبريطانيا من الجنوب تقييد حركة فرسان أواسط آسيا المسلمين. وتقدمت المصنوعات الأوروبيّة في تسويق السلع على حساب المنتوجات المحليّة، وأصاب المنطقة تراجع اقتصادي إضافة إلى الركود الثقافي مما جعل صعباً إقامة حكم محلي مؤسس على الموارد والقوى المحلية (ص 701).

### - أغلال امبراطورية المغول في الهند

تابعت الثورات المحلية حتى قبل موت أورانجذيب (1658 - 1707)

وساهمت في تأكيل الامبراطورية من الداخل. ونشبت ثورات هندوسية ويسيخية، إضافة إلى الغزو الإيراني بعد موته. ولجأت الشركات الأوروبية في هذا الجو المضطرب إلى الاعتماد على قواها العسكرية الذاتية، وتنافست على استخدام عسكر محليين بسبب رخص اليد العاملة، وتسابقت لحيازة المقاطعات (ص 702). وأخرج الإنجليز الفرنسيين من الهند بعد حرب السنوات السبع (1756 - 1763). وتزامن هذا الأمر مع هزيمة الماراثا على يد الأفغان عام 1761؛ وحدث فراغ ملأته شركة الهند الشرقية التي حققت هيمنة على الهند وتدخلت في الشؤون الداخلية دون احتلال مباشر. ومما سهل للإنجليز أمر همّتهم على الهند أن الحكم المسلمين لم يكونوا متّحدين؛ بالإضافة إلى أن هؤلاء لم تكن لديهم قاعدة واسعة في دولهم المحلية (ص 704).

### - الإسلام في أفريقيا وجنوب شرق آسيا

لم تكن الفوضى والانحلال في قلب العالم الإسلامي حائلاً دون توسيع الإسلام. بالعكس، تسارع توسيع الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء وفي جنوب شرق آسيا (ص 705).

### - آسيا الهندوسية والبوذية

أدى توسيع الإسلام المقاتل منذ القرن الحادى عشر في الهند وجنوب شرق آسيا ورهاب (xenophobia) الأجانب عند الكونفوشيوسية في الصين واليابان إلى وضع الهندوسية والبوذية في موقع دفاعي. وسمح نظام الطبقات المغلفة بتقبيل الأجانب في الهند، فحلّ البريطانيون مكان المسلمين كطبقة أخرى حاكمة؛ لكن عادة التطهير بعد لمس الأجانب البريطانيين بقيت مستمرة. ومع اندحار سلطة الماراثا، انهارت جميع الآمال بتصعود سلطة هندوسية في الهند (ص 706). واعتبر البريطانيون أنهم يمكن أن يحكموا الهند بقلة من الرجال إذا احترموا عادات ومؤسسات الهندوس والمسلمين. وانطلقا في نهاية القرن الثامن عشر في البحث ودراسة اللغات الهندية، وسعوا إلى دراسة السنسكريتية من أجل اكتشاف أصول اللغات الأوروبية. وكانت الإرساليات أول من درس اللهجات العالية في الهند، وزاولت عملها رغم أن شركة الهند الشرقية حرمّت

عمل الإرساليات في البداية. وفي بداية القرن التاسع عشر سعت جماعات لبيرالية بريطانية وارساليات إلى مواجهة بعض عادات الهند وتحريم حرق الزوجات بعد موت أزواجهن. ونشأت نخبة هندوسية متأثرة بالثقافة الانجليزية وعملت ضد دفن الزوجات وغير ذلك من الأعراف. لكن معظم الهند بقوا أسري ثقافتهم وإيمانهم وعاداتهم القديمة وطبقاتهم المغلقة (ص 709).

### - تطور أزمة الشرق الأقصى 1700 – 1850

كان القرن الثامن عشر في الصين من أعظم العصور في تاريخها سلماً وازدهاراً وتقديماً ثقافياً وعلمياً.

فقد قيد الصينيون حركة الأوروبيين في الصين بقيود صارمة، وخفضوا الاتصال بين الصينيين والأوروبيين للحد الأدنى. لقد كان رجال البيروقراطية الصينية الكونفوشيوسيون يحتقرن الانخراط في التجارة، وحددوا التعامل مع التجار الأوروبيين من خلال نقابة تجار صينيين بدأ من العام 1720. وفي عام 1757، عينوا كانتون كمرفاً وحيد لورود تجارة الأوروبيين. ولا يمكن تقدير أهمية تجارة مرفاً كانتون بالنسبة للصين، لكن الصادرات الأساسية كانت من الحرير والمتوجات المصقوله باللنك (الورنيش) والبورسلان، وكانت القطبيات أهم الواردات إلى أن حل الأفيون مكانه في القرن الثامن عشر (ص 711).

كانت وسيلة الأوروبيين الأخرى في الصين هي الإرساليات التي نشبت فيما بينها منازعات أدت إلى الاحتکام للبابا وللإمبراطور. تبني البابا وجهة نظر مناقضة لليسوعيين في حين كان الإمبراطور إيجابياً تجاههم (في 1715). وفي عام 1773 حل البابا مؤسسات اليسوعيين ليحل العازاريون مكانهم (ص 712).

كانت النخبة الصينية واقفةً من نفسها ومن ثقافتها لدرجة أنها كانت لا تهتم بالتعلم من الغرب. لكن الأوروبيين اهتموا بالصين معتبرين أن هناك صفات صينية تتفق مع أفكار راديكالية أوروبية: الروح المدنية، عدم توارث المناصب الارستقراطية، نظام الامتحانات والتعيين في مناصب الدولة على أساسها. إن الاهتمام الأوروبي بالصين، الذي يقابله عدم اهتمام صيني بما هو أجنبي، في

القرن الثامن عشر تبخر ليحل مكانه الاهتمام الأوروبي بالهند. ومن الغريب أن اهتمام أوروبا بالإسلام جاء متأخراً في وعيها رغم أنه الأقرب جغرافياً إليها. وربما كانت الحروب المتواصلة هي السبب (ص 713).

وعلى الرغم من ازدهار الحضارة والدولة في الصين في القرن الثامن عشر، إلا أن عوامل السقوط بدت كما في دولها السابقة. ومن أهم هذه العوامل سوء حالة الفلاحين. وكانت ردة الفعل تجاه الأوضاع هي ازدياد تدخين الأفيون من جهة، والثورات الفلاحية من جهة أخرى ووجه الأمر بازدياد القمع وإحراق الكتب والخوف من الرأي المستقل، وتغيير الامتحانات باتجاه المزيد من الاعتماد على الذاكرة (ص 716).

وقد توقف احتكار شركة الهند الشرقية لتجارة الصين في 1834، وفتح الباب أمام التجارة رغم إرادة الصينيين. وعندما صادر الصينيون تجارة الأفيون، غضب الأوروبيون وفرضوا عليهم معاهدة خنوع، كما فرضوا نظام امتيازات للأوروبيين، وشجعوا عمل الإرساليات.

ولم يتغير الفكر الصيني التقليدي وبقي حتى القرن العشرين غير مكترث بالغرب (ص 717).

### - اليابان -

كانت الاتجاهات الرئيسية في تاريخ اليابان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عكس تاريخ الصين في الفترة ذاتها، إذ كانت الصين موحدة ومنغلقة على الأجانب بينما اليابان ممزقة داخلياً وتستجيب للتيارات الخارجية. فقد انهارت العزلة التي فرضت لمدة مئتي عام قبل وبعد التوکوجاوا. ونشأت هوة بين مركز القرار السياسي والقوة الاقتصادية. وعلى الرغم من كون التجار في أدنى السلم الاجتماعي، إلا أن طبقة الساموراي كانت على تبعية لهم. وقد قضت سياسية الشوجون بسكن أسياد الأرض في المدن شهوراً من كل عام، وكان الاقتصاد نقدياً وبالتالي. وقد ساهم تراكم الديون على أسياد الأرض وانخفاض قيمة العملة والمصادرات في تبعية الساموراي والحكومة للتجار؛ فكان الاتجاه

إلى الزراعة والصناعة لحل مشكلتهم الاقتصادية؛ وتبنيوا أبناء التجار لتحسين وضعهم الاقتصادي. وساهم ذلك في دفع الأمور باتجاه زوال الفروق الطبقية (ص 719).

كان النظام ضعيفاً يرتكز على طبقة محاربين يزداد فقرهم وطبقة فلاحين مسحوقين وناقمين، وطبقة تجار غنية لكنها غير واثقة من وضعها. وكانت الدولة تغذى الانقسامات السياسية. ونشأت نخبة هامة، لكنها قليلة العدد، من المثقفين الواقعين لضعف اليابان. وكانت النخبة فريقين، أحدهما مع الغرب والأخر ضدhem؛ وكانت على تناحر، لكنّ تعاون الفريقين يجمعهما العداء للتقاليد الصينية. وكانت النتيجة هي الترحيب بثقافة الغرب ضد الصين. وقد توسع البحث التاريخي بين المعادين للتقليد الكونفوشيوسي، وصعدت الشتوية لتصبح ديناً. فتوصلت الشتوية إلى الحلول مكان الكونفوشيوسية كدين رسمي بعد الإطاحة بنظام توکوجاوا.

إن جهود عدد قليل من الرجال لاكتنافهم ثقافة الغرب كان لها آثار بعيدة المدى؛ ومع نهاية القرن الثامن عشر تعلم عدد قليل من اليابانيين اللغة الهولندية وأصدروا فيها كتاباً في الطب والتشريح والفلك والجغرافيا. وعندما افتتحت اليابان، في عام 1857، لتجارة الغرب كان لتلك القلة من المثقفين ذوي التزعة الغربية دور فعال (ص 721).

### - تراجع البربرية 1700 - 1850

تقاسمت الصين وروسيا سهوب آسيا. وانتصر الصينيون على فيدرالية الكالموك في 1757؛ وكانت تلك آخر مواجهة ضد أخصام جديين من السهوب.

لقد انتهت مرحلة من تاريخ العالم، وجرى تدمير أسلوب الحياة البربرية في أميركا وأوقيانوسيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. ومع حلول العام 1850 كانت إفريقيا جنوب الصحراء آخر خزان بربري باقي في العالم. وقد استمر توسيع الرعاة والزراعيين المسلمين في إفريقيا، إلا أن توسيع الأوروبيين بعد عام 1850 تسارع أيضاً.

والنتيجة أن أسلوب الحياة القديم والبسيط لم يستطع الصمود في وجه الإسلام وأوروبا (ص 725).

### ثامناً: صعود الغرب: الكوزموبولينية على مستوى العالم 1850 – 1950 1 – مقدمة

حدثت في منتصف القرن التاسع عشر أربعة حوادث أدت إلى انهيار لا رجعة فيه للنظام التقليدي للحضارات الأساسية في آسيا:

(1) ثورة تايسينغ في الصين، التي كانت لها آثار عميقة في نسيج المجتمع الصيني، ولم يعد ممكناً بعدها الانغلاق في وجه العالم الخارجي.

(2) خروج اليابان من عهد التوكوجawa وقيودهم الاجتماعية، وكان ذلك ثورة من فوق بداية من 1854.

(3) عصيان 57 – 1858، في الهند، الذي كان حفار قبور للنظام القديم، إذ أنشئت مدارس وطرق ولم يعد ممكناً اعتبار الغربيين مجرد طبقة أخرى.

(4) حرب القرم 53 – 1856، التي انتصر فيها العثمانيون بمساعدة الانجليز والفرنسيين لكن على حساب مؤسساتهم التقليدية (ص 726).

لقد حدثت في كلٌّ من حضارات آسيا ثورة من فوق أو من تحت على حساب الأساليب والقيم القديمة. وانتهى في عام 1850 النظام العالمي ذو الأطراف الأربع والذى دام أكثر من ألفي عام، وحلت مكانه كوزموبوليتية عالمية؛ ولم تكن الحوادث الأربع المذكورة مجرد صدفة (ص 727). وكان لوسائل النقل والاتصالات دور ثوري بسبب كثافتها وسرعتها وانتظامها، وشمل التغيير جميع المجتمعات (ص 728).

لقد نمت قدرة الإنسان على السيطرة على مصادر الطاقة غير الحيوية (غير الحيوانات) وتزايد الاستعداد للتصدي وتغيير المؤسسات الاجتماعية. وأدى التقدم في استخدام الطاقات الاجتماعية والطاقة غير الحيوية إلى جعل أوروبا والغرب مركز العالم، إذ أحرز الغرب تقدماً هائلاً على الصعيد التقني وعلى صعيد التنظيم

الاجتماعي (ص 729).

كان تطور أوروبا نتيجة الثورة السياسية الفرنسية والثورة الصناعية الإنجليزية، وكلاهما أعطى أوروبا شكلاً جديداً لغرب يسير بسرعة متزايدة (ص 730).

### الانفجار الغربي 1798 – 1917

#### 2 - التوسيع الجغرافي

كان ممكناً تحديد المجال الجغرافي للحضارة الغربية على مشارف الثورة الفرنسية في 1789. لكن ذلك لم يعد ممكناً حين حدثت الثورة البولشفية في 1917، إذ تماهى تاريخ الغرب مع تاريخ العالم. وصار المصير نفسه يطال جميع العالم بحضارته ووحشياته وبربرياته. وقد تميز الغرب بتكتل سكاني وامتلاكه أقوى الأسلحة وأكثر شبكات المواصلات والاتصالات تقدماً.

كان للتوسيع الجغرافي الاستيطاني الغربي في أميركا الشمالية والجنوبية واستراليا وجنوب إفريقيا، وغيرها أهمية كبيرة؛ لكنه لم يكن خطراً. فقد اعتمد تاريخ أوروبا بين 1789 و1917 على الطاقة غير الحية بعد الثورة الصناعية، وعلى تقييم جديد لحقوق الإنسان وواجباته بعد الثورة الفرنسية. وصارت الثقافات الأخرى مدينة لثقافة الغرب، كما أن التبادل الثقافي صار ذاته واحد: من الغرب إلى الآخرين (ص 731).

#### 3 - الثورة الصناعية

من التصنيع خلال القرن التاسع عشر بمرحلتين يفصل بينهما عام 1870؛ تمركزت الأولى في بريطانيا، أما الثانية فكانت أكثر انتشاراً وكانت القيادة فيها لألمانيا وأميركا الشمالية.

#### المرحلة الصناعية الأولى:

إن التحول الصناعي الذي بدأ منذ حوالي 200 عام يوازي في حجمه ذلك الانتقال في العصر الحجري من التوحش (predation) إلى عصر الزراعة وتدجين الحيوانات. ومن الممكن اختصار الجانب التقني لهذه المرحلة بكلمتين: الحديد

والفحمر، بما أديا إليه من سكك حديدية ومعامل نسيج وماكينات محسنة عرضت في معرض لندن الكبير في 1891. وكان الدور الكبير لحلقة صغيرة من المخترعين والمهندسين ورجال الأعمال في بريطانيا في أواخر القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر. ومن الممكن أن الوحدات الميتافيزيقية والروح الرأسمالية كانت عناصر ضرورية، لكن هذه العناصر لم تؤد إلى النتائج ذاتها في بلدان أخرى. فهناك أسباب منها رخاوة تنظيم المجتمع البريطاني التي ربما ساعدت على الاخترعات؛ كما أن حروب 1756 – 1815 قد شجعت الصناعة، وأضعف تغير أسعار العملة المؤسسات التقليدية وأدى إلى التجديد الاقتصادي (ص 733).

إن الافتراض القائل بأن هناك علاقة ضرورية بين التصنيع والمؤسسات الخاصة ببريطانيا (أوروبا والولايات المتحدة لاحقاً) هو افتراض ناشئ عن خطأ ذهني مشترك بين دوغمائيي الماركسية ولبيراليي القرن التاسع عشر ومحافظي القرن العشرين. وقد أضاعت بريطانيا تدريجياً أوليتها الصناعية بسبب تحول الصناعيين إلى حياة تشبه الارستقراطية وبسبب غياب العلاقة بين العلم والتكنولوجيا (ص 735).

**المرحلة الصناعية الثانية أو مرحلة ألمانيا والولايات المتحدة:**  
 بقيت الأولوية للفحمر والحديد، لكن مع إضافات لمواد جديدة وأشكال ومصادر جديدة للطاقة. وصار للكيميائيين دور قيادي إذ أصبح المهندسون الصناعيون تلاميذهم، وحلت التقنية الجديدة بالكامل مكان القديمة. وكان للسيارات والطائرات نفس الدور الذي للسكك الحديدية في المرحلة الأولى. أما المفاهيم والنظم الاجتماعية التي كانت قاعدة لتنظيم الصناعي قبل الحرب العالمية الأولى فهي تشابه ما في بريطانيا. لقد تم تصنيع الولايات المتحدة بفضل الهجرة التي ساهمت في أن يصبح البلد بمثابة عصبة أمم إثنية ذات امتزاج وتعددية ثقافية. لكن الاختلاف عن بريطانيا كان في أن «الشركة» أو «المؤسسة» حل محل المالك الفرد؛ والسلطة فيها لبيروقراطية خاصة من الموظفين المديرين لا للمالكين.

سارت ألمانيا في خط مواز للولايات المتحدة إذ فتحت السكك الحديدية طرق الوصول إلى المناجم، ولكن نظاماً طبقياً جامداً وسحراً خاصاً وقوياً للدولة والجيش والبيروقراطية، ونظاماً تعليمياً ممتازاً يتيح أيادي عاملة ماهرة وموزعة في مختلف المناطق؛ كانت كلها عوامل ميزة التطور الألماني. فقد خضع هذا التطور لإدارة ارادوية للعملية الصناعية على الأصعدة التقنية والمالية والهندسة البشرية:

1) على الصعيد التقني: اختراع منظم، وإدارة للاختراع والإبداع، وعلاقة وثيقة داخل الشركات والمؤسسات بين العلم (البحث العلمي) والتكنولوجيا.

2) وعلى الصعيد المالي: دور الدولة أساساً في إدارة السوق الحرة. وتحت مظلة الدولة نشأت في القطاع الخاص بضعة بirocraties سميت «مصارف»، وكانت مهمتها إعطاء تسهيلات مرنة للصناعة، كما لم يحدث في بريطانيا. وقد صار الكارتل هو النموذج الأعلى في ألمانيا حيث الصناعيون والمصرفيون هم الذي يقررون مسيرة السوق ولا يخضعون لها (انتاج مخطط).

3) على صعيد الهندسة البشرية المتطرفة: تعليم مهني متتطور، وقوانين ضمان اجتماعي في أيام بسمارك؛ المدراء يأخذون مكان رجال الأعمال المالكين؛ وانضباط وتضامن لا كما الفردية في البلدان الأخرى؛ وأوليغارشية تغذي نفسها بأعضاء جدد بعد أن تخضعهم لحياة طويلة من الانضباط (ص 741).

لقد طبق الألمان مبدأ التجنيد الإجباري العام مقروراً بالهندسة البشرية. وأخضع العسكر لأجهزة الدولة المدنية والقطاع الخاص من البنوك والكارتيلات لمتطلباتهم. وبحلول العام 1917 حل التقنين (rationing) والأولويات مكان السوق وأوليتها. وكانت ألمانيا أكثر البلدان تركيزاً للسلطة وتوحداً وتضامناً. وقد برهنت على أن نخبة صغيرة تستطيع أن تنجز إنجازات مذهلة في مجتمع منظم (ص 742).

وعلى الرغم من بلوغ التصنيع أهمية كبرى بالنسبة للكرة الأرضية إلا أنه يبقى ظاهرة محلية في الوقت الذي حدث فيه الحرب العالمية الأولى التي حطمت النظام القديم (ص 744).

### 3 - الثورة الديمocrاطية

تحول مجلس الطبقات في فرنسا عام 1789 إلى جمعية عامة أعلنت حقوق الإنسان وسعت إلى تجسيدها في دستور. بعد ذلك صار موضوع السياسة الأوروبية هو تكييف المؤسسات الموروثة مع الحقائق التي أوجدتها الثورة الفرنسية: العلمنة والعقلنة وإصلاح المؤسسات. لكن الثورة الفرنسية نفسها كانت نسيجاً من المتناقضات إذ إن معنى الحرية هو حق الأكثريّة في أن تفعل ما تشاء متتجاوزة كل عقبة في طريق إرادتها كما هو حق الأقلية في تنوير الشعب مستخدمة التحرير (ومتجاوزة ذلك إلى التهديد والعنف في الحالات القصوى) (ص 744)؛ لكن معنى الحرية أيضاً هو حق الأفراد في أن يصنعوا ما يشاؤون حتى ولو كرهت الأكثريّة ذلك (ص 745). ومن الممكن لمفهوم الأخوة أن يشمل جميع البشر أو يقتصر على الفرنسيين وحدهم. وكانت النتيجة المباشرة للثورة الفرنسية لا حكومة جمهورية بل دكتاتورية تلتها ردةً ملكية (ص 746). لكن الحكومات صارت من صنع الإنسان لا الله.

لقد كانت الثورة الفرنسية (الديمocratie) والثورة الصناعية توأميين أتاحتا للأوروبيين وحكوماتهم قوة واسعة المدى تجسدت في الدولة القومية، كما أعطنا دفعاً للمركزية وللتوحد اللذين كانا من قبل صفتين للملكية الفرنسية منذ القرون الوسطى. وصار الشعب ملكاً جديداً مطلقاً. وقد أدى موقف الكنيسة المقاوم لهذا التطور إلى فشل محاولة عقلنة الدين ليصبح مطابقاً لعقلنة الدولة (ص 747).

حققت الثورة الفرنسية استقطاباً بين ببروغراتية مركزية وملابين من المواطنين الأحرار. لكن التجنيد الإجباري الذي بدأ كإجراء اضطراري صار دائماً وشكل تعديلاً مستمراً على الحريات. رغم ذلك برهنت الثورة الفرنسية على أن البشر يستطيعون صنع النظام السياسي وتحطيمه. لذلك يمكن القول إن الثورة الفرنسية حطمّ الأسس التقليدية للحكومة. وكانت العلاقة الحميمة بين الشعب والدولة هي سحر هذه الثورة.

إن حكومات أوروبا الشمالية الغربية هي وحدتها التي استطاعت تقوية نفسها

بالاستفادة من الأفكار الديمقراطية التي أضفت في الوقت نفسه امبراطوريتي النمسا وروسيا اللتين كانتا قد نشأتا على خطوط المواجهة الأوروبية. والفرق هو في الطبقة الوسطىالمدنية التي كانت ضعيفةً في روسيا والنمسا بالنسبة لأوروبا الغربية. إن الطبقة الوسطى هي التي تصل بين الطبقات العليا والدنيا وتجعل بينهما شراكة (ص 750).

#### 4 - الجوانب الفنية والثقافية

إن التطور الفني والثقافي الضخم بين 1789 و1917 قاد إلى التساؤل حول ما لم يكن موضع تساؤل من قبل؛ فكان السعي إلى حقائق جديدة. لكن الانسجام الثقافي كان وهماً وسط التنوع والاضطراب.

لقد رفض الرسامون إطار المنظور (perspective frame) المجسد الذي كان شائعاً منذ القرن الخامس عشر. والفيزيائيون عدلوا فيزياء نيوتن وقوانين الحركة التي وضعها والتي كان يؤخذ بها منذ القرن السابع عشر. والنظرية التطورية إلى العالم حطمت القيم التقليدية. وكانت تلك الطاقة المتفجرة عاملاً تحررياً.

استند الرسامون إمكانيات الخطوط المستقيمة Liner والمنظورات التي بدأت قبل 1789. وحمل أمثال فان غوغ وبول سيزان وغوغان الانطباعية إلى نهاياتها وأحدثوا انقطاعاً مع الألوان الطبيعية والمنظورات والرؤى التقليدية لمصلحة زوايا جديدة خاصة ب أصحابها؛ الأمر الذي ربما يجعلها صعبة الفهم على الآخرين. وصارت الأولوية للآني واللاماهي: قطع غير متصلة تمثل تجربة بصيرية متقطعة من المناظر المألوفة التي يعاد تركيبها في أنماط جديدة لا تمت بصلة إلى أي واقع خارجي (ص 703).

حدث العكس في الموسيقى إن إن الكلاسيكية لم تكن قد استندت إمكانياتها؛ وكان لها الاستمرار رغم الاهتمام بالجاز والأوزان الموسيقية غير القائمة على الشمانية. أما الأدب والنحت والعمارة فقد أخذت مكاناً بين القطبين، واستمرت أفنية التعبير المستخدمة منذ القرنين الخامس عشر والسادس عشر؛ وذلك فيما عدا روسيا التي شهدت تحطمها في البنى الثقافية

الموروثة. لقد تحطمـت البديهيات الثقافية المعتمدة في روسيا منذ بطرس الأـكـبر، على عـكـس الغـرب الذي ظـلـت بـدـيـهـيـاتـه فـاعـلـةـ.

سـادـ الـاضـطـرـابـ فـيـ المـجـالـ الـعـلـمـيـ كـمـاـ فـيـ الرـسـمـ وـقـادـ إـلـىـ مـزـيدـ مـنـ الـبـحـوـثـ مـاـ أـخـدـتـ تـقـدـمـاـ ظـهـرـتـ آـثـارـهـ فـيـ اـكـتـشـافـ قـوـانـينـ عـلـمـيـةـ جـدـيـدةـ،ـ إـضـافـةـ عـلـىـ تـطـبـيقـ الـقـوـانـينـ الـمـعـرـوـفـةـ عـلـىـ أـصـنـافـ جـدـيـدةـ مـنـ الـظـواـهـرـ:ـ جـاـيمـسـ جـوـلـ (ـتـ 1889ـ)ـ يـكـتـشـفـ مـعـادـلـةـ الشـغـلـ بـالـحرـارـةـ؛ـ جـاـيمـسـ مـاـكـسوـيلـ (ـتـ 1889ـ)ـ يـكـتـشـفـ الـوـحدـةـ لـأـشـكـالـ مـخـتـلـفـةـ مـنـ الطـاقـةـ الـمـشـعـةـ فـيـ حـقـوـلـ الـكـتـرـوـمـغـنـطـيـسـيـةـ مـتـوـاـصـلـةـ،ـ كـمـاـ يـكـتـشـفـ إـمـكـانـيـةـ تـطـبـيقـ مـنـاجـمـ الـفـيـزـيـاءـ التـطـبـيقـيـةـ فـيـ مـجـالـاتـ مـخـتـلـفـةـ كـالـكـيـمـيـاءـ وـالـفـلـكـ وـالـبـيـوـلـوـجـيـاـ وـعـلـمـ الـورـاثـةـ وـالـجـيـوـلـوـجـيـاـ؛ـ جـوـنـ تـوـمـسـونـ (ـتـ 1940ـ)ـ أـحـلـ الـإـلـكـتروـنـ مـكـانـ الـذـرـةـ كـمـوـحـدـةـ أـسـاسـيـةـ تـكـاثـرـتـ مـنـهـاـ الـمـادـةـ بـعـدـ أـنـ كـانـ عـلـمـاءـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ قـدـ مـيـزـواـ بـيـنـ الـذـرـاتـ وـجـعـلـوـاـ الـذـرـاتـ هـيـ الـوـحدـاتـ الـأـسـاسـيـةـ لـلـمـادـةـ؛ـ فـوـنـ هـلـمـهـولـزـ (ـتـ 1894ـ)ـ أـدـخـلـ مـبـداـ تـخـزـينـ الـطـاقـةـ فـيـ جـمـيعـ التـحـوـلـاتـ الـفـيـزـيـائـيـةـ (ـصـ 756ـ).ـ كـانـ عـلـمـاءـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ مـرـتـاحـيـنـ إـلـىـ تـقـاطـعـ الـمـادـةـ وـالـطـاقـةـ وـإـلـىـ عـدـمـ إـمـكـانـيـةـ تـدـمـيرـ الـمـادـةـ أـوـ الـطـاقـةـ وـإـلـىـ مـعـادـلـةـ مـغـلـقـةـ لـكـلـ مـنـهـماـ.ـ لـكـنـ الـاسـتـنـاءـاتـ تـكـاثـرـتـ فـيـ بـدـايـةـ الـقـرنـ الـعـشـرـينـ لـيـتـصـاعـدـ الشـكـ بـالـفـيـزـيـاءـ التـقـليـدـيـةـ:ـ مـاـكـسـ يـلـانـكـ (ـتـ 1947ـ)ـ اـعـتـبـرـ أـنـ الـطـاقـةـ إـشـعـاعـ ذـرـيرـاتـ (ـparticlesـ)ـ؛ـ هـنـرـيـ بـكـرـيلـ (ـتـ 1908ـ)ـ اـعـتـبـرـ أـنـ الـمـادـةـ فـيـ حـالـاتـ خـاصـةـ يـمـكـنـ تـدـمـيرـهـاـ لـيـصـعـدـ عـنـهاـ إـشـعـاعـ قـويـ الـطـاقـةـ؛ـ اـيـنـشتـيـنـ (ـتـ 1955ـ)ـ يـكـتـشـفـ الـعـلـاقـةـ بـيـنـ الـزـمـانـ وـالـمـكـانـ فـيـ تـوـاـصـلـ مـتـوـحـدـ،ـ وـيـضـعـ نـظـرـاتـهـ حولـ النـسـ比ـةـ الـتـيـ تـعـتـبـرـ أـنـ الضـوءـ يـتـحـركـ بـسـرـعـةـ وـاحـدـةـ فـيـ جـمـيعـ الـاتـجـاهـاتـ،ـ مـهـماـ كـانـ مـصـدرـهـ وـحتـىـ لـوـ كـانـ الـمـصـدرـ مـتـحـرـكـاـ.ـ وـكـانـ مـاـيـكـلـسـونـ (ـتـ 1931ـ)ـ:ـ وـمـوـرـليـ (ـتـ 1923ـ)ـ قـدـ بـدـأـ بـمـلـاحـظـةـ هـذـهـ النـظـرـيـةـ مـنـ قـبـلـ وـإـنـ كـانـتـ قـدـ بـدـتـ مـتـنـاقـضـةـ بـشـكـلـ أـسـاسـيـ مـعـ نـظـرـيـةـ نـيـوـتنـ حـولـ إـطـلـاقـيـةـ الـزـمـانـ وـالـمـكـانـ لـأـنـ الضـوءـ الـمـنـبـعـتـ بـاتـجـاهـ حـرـكـتـهـ يـجـبـ أـنـ يـسـيرـ بـسـرـعـةـ أـكـبـرـ مـنـ الضـوءـ بـالـاتـجـاهـ الـمـعاـكـسـ (ـصـ 757ـ).

لـمـ تـعـدـ مـصـطـلـحـاتـ الـزـمـانـ وـالـمـكـانـ وـالـمـادـةـ وـالـطـاقـةـ،ـ كـمـاـ فـهـمـتـهـاـ فـيـزـيـاءـ الـقـرـنـ

الناسع عشر تفي بشرح جميع الظواهر، وصارت أنطولوجية المادة – الطاقة مشوша. انتقلت الميتافيزيقا والسحر من الهيكل إلى المختبر، واستعادتا هيمتهما على الرياضيات: فـأين سحرهما من خضوع الكون لانضباط المنطق الرياضي؟

تحول من بدائيات القرن الناسع عشر إلى اضطراب القرن العشرين ورثة الجميع الأشياء على أنها سيرورة تطور لا تنتهي؛ هكذا جعل هيجل وأخرون التطور في الزمن يرتقي إلى مستوى مبدأ كوني فريد. مما كان غير ممكناً في السابق يصبح ممكناً في لحظة أخرى. وعلى يد ماركس الذي كان أهم منظري علم الاجتماع وأكثرهم تأثيراً يتم تطبيق نظرية التطور على التاريخ البشري وعلى المصير البشري. وستصبح الماركسية ديناً آخر (ص 759).

لا يكتفي باقتصرار تطبيق نظرية التطور على الانسانيات والعلوم الاجتماعية، بل يطبقها داروين على البيولوجيا. وتدخل جميع الكائنات الحية في إطار سيرورة واحدة. ويشمل التاريخ جميع الأشياء والموجود لا الانسان وأفعاله وحسب. حتى الأرض، صار لها تاريخ (ص 760).

ووجد الفلاسفة أن كانت لم يتوصل إلى حلّ مرض الإشكاليات المعرفة ودور العقل. فجاء فرويد معتبراً أن الدوافع الأساسية للبشر تقع فيما دون الوعي. ويصبح الوعي كياناً سطحياً ومرةً تشوّه الحقائق غير المرئية أو غير الداعية. وهذا تحديّ دور العقل الذي أصبح يحمل إمكانية كشف الحقائق كما يحمل إمكانية تخبيتها. على أساس هذه الآراء تنشأ علاقة بين الانسان والحيوانات والأشكال الأدنى للحياة. ولم يكن فرويد وحده صاحب الدور في إزاحة العقل عن عرشه (ص 762).

يبدو صحيحاً الاعتقاد أن الحضارة الغربية قد وصلت إلى المرحلة الحرجة critical path في مطلع القرن العشرين، وذلك حتى قبل أن تغرق في هاوية الحرب والثورة. لقد سرعت الحرب العالمية الأولى والثورة البولشفية هذه العملية ولم تخلقا الأزمة (ص 762).

### ج. العالم غير الغربي

أصاب التمزق أساليب الحياة التقليدية في العالم الإسلامي والصين والهند

والبابان في أوقات متزامنة في منتصف القرن التاسع عشر.

كان السبب في بداية التمزق هو دخول التكنولوجيا الغربية في ثقافات تلك العوالم. وعندما تحطم قواعد العادات والآيمان لدرجة كافية بحيث صارت العقول الأفريقية والآسيوية تتحسس الأفكار الغربية وتيراتها، صار ممكناً لأفكار الغرب أن تنافس التكنولوجيا في تغيير المسرح الثقافي المحلي.

### ١ - تغير شكل ونمط الآيكونيين

أدت التغييرات في وسائل النقل في القرن الممتد من 1850 إلى 1950 إلى تقصير المسافات وإلى تغيير شكل الآيكونيين (ص 764). فقد صغرت الكرة الأرضية وصارت الشعوب جميعها جيراناً بفضل سرعة النقل البري والبحري والجوي.

إن السمة الثانية البارزة لهذا العصر هي التزايد السكاني في جميع أنحاء المعمورة، وترجع الشعوب البدائية في وجه السلاح والجراثيم والتمزق الاجتماعي - النفسي الذي أنتجه الإنسان المتحضر. ليست أسباب التزايد السكاني مفهومة كلّياً، وهي تتغيرة من منطقة إلى أخرى، ويدرك في عددها تقدم التكنولوجيا الطبية وتتوفر الغذاء وازدياد قدرة الحكومات على مساعدة المناطق المنكوبة. والأكيد أن تزايد السكان بنسب هندسية يسبب تغييرات بيئية جذرية (ص 768).

أن انتقال الأفكار بين مختلف أنحاء العالم يتتسارع ويزداد حجمه مع تطور المواصلات ولا شك أن هنالك عوائق سياسية ولغوية ودينية في وجه انتقال الأفراد، لكن هناك مجال فكري مشترك وممكن لكل المجتمعات، خاصة في العلوم الطبيعية والتطبيقية (ومنها الهندسة). ومن الممكن للإنسان أن يحمل ثقافتين إحداهما عالمية والأخرى مسيحية أو إسلامية أو هندوسية أو كونفوشيوسية (ص 769).

إن أفكار الغرب العلمانية ونظرياته يمكن أن تكون الديمومة والاستمرارية كالآدبيان السابقة لها. ومؤدى الحلم العلماني هو تلك الرؤية القائلة إن جنة

على الأرض، يمكن أن تتحقق في المستقبل. وهناك لدى الكثيرين الاستعداد للموت من أجل الحلم الذي هو صفة العصر الكوزموبولتي المميزة (ص 770).

يدور منذ عام 1917 صراع في الغرب بين الثورة الفرنسية «حرية، مساواة، إخاء» والثورة الروسية «سلم، أرض، خبز». وشكلت التيارات الثورية حتى متتصف القرن العشرين في العالم غير الغربي قوة ذهنية واحدة ذات تنوعات في داخلها، وهناك التناقض بين برامج عملها المشتقة من الثورة الفرنسية أو الروسية مع المبادئ القديمة والهيئات الاجتماعية، مما أدى إلى مزيد من الصدامات والصراعات. وقدرت المجتمعات في كل الأرض، بما في ذلك المجتمعات الأوروبية، وضوح العناصر التي تحدد هوياتها الثقافية ومؤسساتها. وتوارحت الاستجابات بين تيارات محافظة منشودة وإصلاحية ونضالية وتأمرية أو سعي وراء الربح والثروة أو التزام بقضية. وتزايدت صعوبة التعميمات في مسرح يختلط فيه الأولياء والأشرار، والجبناء والأبطال (ص 772).

## 2 - العالم الإسلامي

تراجع العالم الإسلامي أمام الغرب الهاجم وتخلى الدول الإسلامية، بدرجة أو بأخرى، عن السلف الصالح في سبيل امتلاك تقنيات الغرب الاقتصادية والسياسية (ص 772). ورغم الاستقلالات، بقيت مظاهر الدولة الحديثة أموراً مستعارة متبعة بشكل مرتكب لجسم سياسي عتيق متمحور في معظم الأحيان حول حنين إلى ماضٍ لا يمكن استعادته رغم الولاء له. لقد عز المسلمين في بداية العصر الراهن عن التجديد الجريء، وفضلوا العقيدة النافذة والهيئات القائمة في مواجهة النهضة والإصلاح الديني الغربيين (ولم يعد لديهم قيادة أو أفكار تستطيع استنفاد عواطفهم وأفكارهم في مواجهة التوتريين الفرنسي والروسي (ص 773). إن الالتزام الكلامي بالإسلام والديمقراطية فشل في تحقيق الاثنين معاً. وكانت ردة الفعل على صعيد الفردي حيال عدم انسجام الموروث الإسلامي مع الحداثة هي التجزئة داخل الذهن الواحد إلى حجرات مستقلة. وكانت التجارب متنوعة، من علمانية اناتورك إلى طهرانية الوهابيين، أما التجربة الباكستانية فهي لم تستطع استيعاب الشريعة ولا الهروب

منها، أما التصنيع فقد كان ذا نفوذ أقل أهمية من الثورة الديمocraticية في العالم الإسلامي.

### 3 - الهند الهندوسية

كان تقبل أفكار الغرب في الهند أسهل لما لدى المسلمين إذ لا عداء تاريخياً بينهما. وقد تجاوיבت الهندوسية مع ثقافة الغرب بمرونة أكثر من الصين والإسلام (ص 776). وكان للثورتين الصناعية والديمقراطية الأوروبيتين ما يوازيهما في الهند، وأدى تداخل التيارات البريطانية والمحلية إلى سيرورة خاصة بالهند. وكان تطور الهند الصناعي والاقتصادي من 1850 إلى 1950 محكوماً بالتنافر بين الممارسة والمبادئ السياسية، والازدواجية بين ما هو حديث جداً وما هو عتيق مستمر منذ القدم، بين حكومة حديثة وتقاليد قديمة. وفي حين كان قطاع الدولة في الاقتصاد حديثاً (سكك حديدية متطرفة، أعمال رئيسي، الخ...) بقي القطاع الخاص متخلفاً. ومع نهاية الحرب العالمية الثانية كان اقتصاد الهند مختلفاً (ص 778).

خلطت أفكار غاندي ودمجت بين الرهد الهندوسي والمسالمة المسيحية والعلمانية الديمقراطية. وكان المزج بين الهندي المحلي والأفكار الغربية الطريفة ظاهرة جديدة. وأدى نضال غاندي من أجل المنبوذين إلى تكاثر أعدائه بين الهندوس. ولا يعادل الهند إلا الصين في حجم تداخل الغرب مع ما هو محلي فيما يخص الأفكار والتقنيات والمؤسسات (ص 780).

### 4 - الصين

تشبه التطورات في الصين، منذ ثورة تأييinغ في 1850 إلى سيطرة الشيوعيين عام 1949، إلى حد كبير مراحل الانتقال من سلالة إلى أخرى في مختلف العصور السابقة لها. وتقارب هيراركيات الحزب والحكومة في الشبه هيراركيات الكونفوشيوسية، من الأساتذة والرسميين، حتى في ممارسة السلطة (ص 781).

نشأ لدى النخبة الصينية منذ 1917 إجماع على رفض الكونفوشيوسية وتبني ثقافة الغرب. ويشبه تقبل الصين للماركسية تقبل الشعوب الداخلية حديثاً للهرطقات

(ص 782).

كان هناك عدد محدود من الاصلاحيين بعد ثورة تايسينغ. وقد تراجع زخم الإصلاح بعد الثورة وصار لهم الأساسي هو استعادة النظام القديم، لكن ثورة الملوك الملاكمين 1900 - 1901 أعادت طرح الأمور. وقاد توقف الامتحانات عام 1905 الذي أحدث انقطاعاً لتقليل دام 2000 عام إلى اضطراب أيديولوجي (ص 783). ونشأ وضع متفجر نتيجة الفوضى الذهنية وتضخمت أعداد المنضوين إلى الكوميتانج وإلى الحزب الشيوعي. وكان النصر ممكناً لأي منهما. لكن التأثير الغربي في الصين بقي سطحياً حتى عام 1950. وكان 80% من السكان فلاحين ناقمين ضد جامعي الضرائب والنظام الريعي؛ كما كان يحدث لدى سقوط كل سلالة.

لقد بدأت الصناعة الحديثة المعتمدة على الآلات تدخل الصين ببطء في 1840، وتسارع الأمر بعد الحرب الصينية اليابانية في 1895 والانفتاح الناتج عنها (ص 784). ولم تلعب السكك الحديدية الدور نفسه كما في الهند. وكانت بداية أعمال الإنشاء الكبيرة في العقد الأول من القرن العشرين. لكن النسيج الاجتماعي في الريف والمدينة بقي على حاله دون تطور. فالتقدم باتجاه غربي يصير ممكناً مع قيام حكم قوي فقط. وإذا كانت المواجهة بين الصين والغرب تبقى رهن المستقبل فإن الصين في مرحلة 1850 و1950 كانت تمر بحقبة انحطاط بالمقارنة مع ماضيها العظيم.

## 5 – اليابان

أظهرت الحضارة اليابانية ازدواجية عجيبة في زمن التوكو جاوا إذ وازنت بين أقصى تقسيمين. فعندما كانت اليابان مغلقة حيال العالم الخارجي، كان هناك فضول جامح حيال علوم الهولنديين تجاوز كل العقبات. وكانت الفيدوالية الوراثية تختبره وراءها إدارة بيروقراطية في كل من القطاعيات الستين التي انقسمت إليها اليابان. كما أن الفصل بين السلطتين السياسية والاقتصادية سمح للتجار المكرهين بتراسخ الثروة في حين أصاب الاقطاعيين وال فلاحين الفقر والعوز. وكانت علاقة الامبراطور

والشوجان في توفر دائم. كما أن المؤتمرات والتسويات والتوازنات أدت إلى تمزق عام في 1850 حين نشب التزاعات بين الكتل والجماعات المتنافسة لتوارث عرش الامبراطور الذي لم يكن له ولد (ص 786).

لكن الاستجابة كانت سريعة لتحديات الغرب بعد ظهور الكومودور باري في 53 – 1854 على شواطئ اليابان؛ إذ إن هيراركية متدرجة بحدة وذات انماط متمايزه لمختلف الطبقات أدت إلى توازنات وسمحت لعدد قليل من القادة النخبوين بتغيير اليابان، خلال جيل واحد، وإعادة رسم مؤسساتها السياسية والاقتصادية حسب النماذج الغربية، وإقامة توازن بين القديم والحديث. وكانت هذه القدرة على التغيير المفاجيء مشابهة لتبني الامبراطور للحضارة الصينية في القرن السادس الميلادي وما بعده، ومشابهة لمواجهتهم للبرتغاليين (ص 787).

لقد استعاروا من الغرب كما كانوا معادين على الاستعارة من الصين لألف عام سابقة. وقد سمحت التقاليد اليابانية باحداث تغيرات عميقه وسريعة. لكن تصنيع اليابان لم يكن تقليداً للنمط الغربي، فقد لعبت الدولة دوراً أكبر استباق أساليب الشيوعية. فقد كانت هناك مؤسسات اقتصادية كبيرة للمصارف والمناجم والصناعات الثقيلة وبناء السفن، وأوليغارشية اقتصادية، وحسن عميق بالمسؤولية لدى القطاع الخاص مقابل ديون للدولة لم تدفع (ص 788).

استطاعت اليابان أن تراوح بين التقنية الغربية والمؤسسات اليابانية. فقد سمحت استمرارية البنية الاجتماعية ذات الهيراركية الصلبة بالتراكم الرأسمالي للتميز الصناعي (ص 789).

لم تشهد اليابان ثورة ديمقراطية. وإذا كانت اليابان بعد 1947 قد صارت ديمقراطية، إلا أنه من المشكوك فيه أن تكون المفاهيم السائدة ديمقراطية (ص 790).

في منتصف القرن التاسع عشر شهدت اليابان ثورة رجعية في إعادة الامبراطور. لكن التغييرات الإدارية لتوحيد اقطاعيات يابان التوكوجاوا وضعها تحت سلطة الدولة المركزية، والغاء الفيدالية بشراء حقوق سادة الأرض

والساموري، وإعادة تنظيم الجيش بشكل جذري ليضم الأقطاعيين المتعالين وال فلاحين والتجار الوضاع و منبودي المجتمع السابقين الذين خضعوا باحترام لرؤسائهم في الوظيفة بعد أن كانوا يخضعون للإقطاعيين المحليين؛ كل ذلك كان له آثار ثورية. وصار الجيش وسيلة لصعود السلم الاجتماعي كما صار وسيلة للتوحيد وفرض الانضباط. وفي منتصف القرن العشرين حدثت ثورة من فوق مرة أخرى على يد الجنرال الأميركي ماك آرثر (ص 791).

### خاتمة

كان العام 1917 نقطة تحول في المجال والحجم السياسيين، إذ أصبح العالم تقوده قوتان متنافستان بما لهما من موارد ومصادر قوة بشرية ومادية (ص 794). وإذا كان التصنيع الحديث والنقل قد جعلا من الحجم مزية فإن احتكار أسلحة الدمار الشامل هو أيضاً مصدر قوة... وربما استطاعت قوة أخرى كأوروبا متعددة أو شرق أو سط متعدد أو أفريقيا متعددة الصعود إلى مركز قوة عظمى أخرى (ص 795).

يخل الاقتصاد في السياسة مرة أخرى. هذا ما حدث في الاتحاد السوفيتي حيث يخضع كل شيء للهدف الشيوعي (ص 796). ويزول التمييز بين الاقتصاد والسياسة وبين الحرب والسلم. وتحمل الدولة مسؤولية البناء من أجل اقتصاد مزدهر بمعونة البحث العلمي وتطوير أسلحة ذرية، وتأكد على إنتاج عدد كبير من المهندسين، وتخضع كل الأمور لقرارات سياسية - عسكرية (ص 797).

في حين تفرض الولايات المتحدة سلطتها السياسية - العسكرية على الناس (ص 798)، يتراجع الاتحاد السوفيتي عن محاولة بسط كل سلطة الدولة عن الناس، تتلاقي الدولتان في كثير من الصفات. وفي القرن العشرين يتكرر بشكل مختلف تداخل الثورتين الصناعية والفرنسية عما كان عليه أمر هذا التداخل في القرن التاسع عشر، فقد أكملت الثورة الروسية منطق الثورة الفرنسية. إن الشعب الذي هو مصدر كل السلطة السياسية يضطر إلى وضعها بيد البرلمان والوزارة ولجان الديكتاتار، يصبح (هذا الشعب) تجريدأ... لكن المؤسسات تبقى من صنع البشر. ويعتدى الشيوعيون على حق الملكية الذي تأكد في القرن الثامن عشر وعلى الحقوق السياسية التي تأكّدت في القرن

التاسع عشر (ص 799).

لكن الشعب لا يتحكم بدولته، لا في الولايات المتحدة ولا في أي بلد آخر؛ هذا على الرغم من كون العملية الديمقراطية تضع حداً لسلط الدولة (ص 800). إن تطور تقنيات مخاطبة الشعب، باستغلال ما هو غير عقلاني لدى الإنسان، هو أمر لا يبعث على التفاؤل بخصوص الديمقراطية. ويبقى الشعب غير قادر على الإمساك بتلابيب الحكم رغم كثرة الكتابات ضد القمع، فهناك هيراركية وتحكم، وقلة من الناس يخططون مصير الآخرين (ص 801). والإدارة لا تتغير مع تغير الأشخاص المنتخبين، والبيروقراطية تبقى وتستمر ثقيلة وذات وضع استراتيجي يفوق أي مصلحة خاصة ويختنق الإمكانيات. وتأخذ الإجراءات البيروقراطية طريقها دون الخضوع أو الحاجة لتشريعات (ص 803).

ربما كانت الخطوة التالية، بعد الهندسة البشرية، هي اللالعب بالوراثة البيولوجية genetics من أجل إدارة مسيرة التطور البشري وفي سبيل فعالية أكبر في تحقيق الانضباط الاجتماعي وتركيز السلطة (ص 804).

لكن ما يبعث على التفاؤل هو أن كل عملٍ من أجل خطة محكمة لإدارة شؤون البشرية فإن مصيرها هو الفشل؛ وفي ذلك رحمة للناس. والسؤال هو هل سيتحقق ذلك بمثابة سيف ديموقليس إلى أن يجري الإثبات أنه بالإمكان تدجين البشر وإخضاعهم. وقد ظهر عبر التاريخ أن ازدياد قدرة البشرية على التنظيم وامتلاك القوة يمكن أن يكون هو نفسه عاملاً ضد استخدامها (ص 805).

تنظر الآن أمامنا إشكاليات عديدة في الجماليات والدين والأدب والفن والعلم؛ وهي تفتح أمامنا آفاقاً واسعة. إن الحلم الكوزموبوليتي، إذا تحقق فسيكون ذلك عن طريق الغرب؛ وما «صعود الغرب» إلا وصف مختصر لتطور التاريخ حتى الآن.

لقد كانت الحياة في أثينا ديموقليس وصين كونفوشيوس وجزيرة محمد العربية محفوفة بالمخاطر والمخاوف والعظمة التي تجاور الكارثة. ومن الواجب أن نعتبر أنفسنا محظوظين إذ نعيش في عصر مماثل (ص 806).